

الله

~~أم لا إله~~

الرؤية الإسلامية في مقابل وجهة نظر الإلحاد

تأليف هيا محمد عيد

المحتوى

- "الله" في الإسلام
- في الإلحاد، لا تعريف لكلمة "الله"
- أسماء الله وصفاته في الإسلام
- استحالة الصفات الإلهية في الإلحاد
  - المسألة مسألة منطق
  - بصائر قرآنية
  - ذات الله عز وجل
  - سبل معرفة الله تعالى
  - صفات الخالق وبصماته في الكون
- خلق الكون
  - الطبيعة: كتاب الله المنظور
  - تأملات
- كون سبب نفسه أو ... وُجِدَ بدون سبب
  - قضايا يعجز الملحدون عن الإجابة عليها
  - التعقيد المذهل في بناء الخلية الحية
  - الكينيسين — النظام البريدي الخاص بالخلية
  - الدليل تجدونه في أنفسكم
- دور العلم
  - الدين والعلم— علاقة تكامل لا تصادم
  - موقف العلماء تجاه الدين
  - اليوم مقارنة بالماضي
  - الانسجام بين القرآن والعلم
  - اتباع الدليل حيثما يقود
- ما هي الحياة بالضبط؟
- قدرة الله على الخلق والإبداع
  - إلى أي جيل من البشر يشك في وجود الله تعالى
  - الذباب يواصل إثارة الدهشة
  - الموت علامة ودلالة مثله مثل الحياة
  - نقطة الإدراك الحتمية
- السبب الذي من أجله خُلق الإنسان: وجهات النظر المختلفة لكل من الإسلام والإلحاد
  - الإلحاد: الحياة ليس لها أصل هادف
  - الحياة في نظر المفكرين الأكثر شهرة في العالم
  - الإسلام: الغاية الكبرى وسبب الوجود
  - مخلوقات هادفة خلقت لسبب
  - المضي في الحياة دون اعتبار لإرشادات الخالق
  - كل إنسان هو مخلوق مكرم، خلقه الله عز وجل لغاية عظمى
- مفهوم العبادة والخلافة في الأرض
  - لا إضاعة للوقت في الإسلام
- حرية الاختيار والمسؤولية الأخلاقية
- وهم الإرادة الحرة
- الفطرة: الطبيعة الأصلية التي خلق الله عليها جميع البشر.
- الخطوط العريضة لنظرة الإسلام إلى الإنسان
  - نفوس البشر كالمعادن
- من وجهة نظر الإسلام والإلحاد: من أين تأتي الأخلاق؟ ومن أين تأتي القيم؟
  - من الذي يقرر ما الخطأ و ما الصواب؟
  - المسوغ النفسي المنطقي وراء إنكار وجود الله
- معضلة وجود الشر: من وجهتي النظر المختلفتين لكل من الإسلام والإلحاد
  - الحياة كلها اختبار من الله تعالى
  - السبب الوحيد للشر.
  - الله موجود
- عبدًا لنفسه
- عندما لا يجد الإنسان من يشكره
- اهتداء الإنسان إلى معرفة ربه ... الطريق الطبيعي والأكيد الذي جاء به الإسلام



"الله" في الإسلام

الله عزوجل، كجزء لا يتجزأ من التعريف به سبحانه؛ هو وحده السيد المالك لهذا الكون، وهو الموجود بذاته؛ فلا يستمد وجوده من أحد، ولا يحتاج إلى أحد، ولا يفتقر إلى أحد، بل كل شيء يفتقر إليه في وجوده وبقائه؛ فالعالَم بكل من فيه وما فيه وُجِد بإيجاد الله تعالى له، ويعتمد عليه كليًّا في قُوَّته وبقائه.

الله عزوجل لا يحتاج لمن يمنحه الوجود أو القوة أو الكمال، فهو كامل في ذاته، قائم بنفسه، لا يفتقر إلى غيره، متصف بصفات العلا والكمال سبحانه، وهي غير منفصلة عنه. فلا يمكن أن يكون إلا كاملًا، غنيًّا بذاته غنى تامًّا، قادرًا مقتدرًا؛ فكماله وغناه وقدرته من لوازم ذاته سبحانه. إذا كان مخلوقًا، أو يتوقف وجوده على وجود غيره، أو محدودًا، أو متغيرًا، أو متبدلًا، أو به نقص أو عدم كمال بأي شكل من الأشكال، فهذا يُفقِده أحد خصائص الألوهية؛ لا يمكن بعدها أن يستحق أن يُدعى "إلهًا" لانتفاء صفة الألوهية عنه، حسب مقتضى تعريف الإله الحق.

الله عزوجل هو الحي الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت، موجود بلا بداية، باقٍ بلا نهاية، غير محدود بزمان أو مكان أو قوانين الطبيعة، فهو مَنْ خَلَقهم ووَضَع نظام عملهم. فيستحيل أن يخضع الصانع لما صنع، أو أن يحيط المصنوع بالصانع، بل هو كائن أبدًا خارج حدود ما صور وخلق وأبدع، تمامًا كما يقف الفنان خارج أبعاد لوحته، أو صاحب الحرفة خارج أبعاد الإناء أو الوعاء الذي صنعه.

الله عزوجل لا كفؤ له ولا نظير ولا مثيل، يقول القرآن الكريم بوضوح تام: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى ٤٢: ١١) فليس كمثل ذاته ذات، وليس كمثل صفاته صفات، وليس كمثل أفعاله أفعال. أي إن الله سبحانه وتعالى لا يشبهه شيء ولا يشبه مخلوقاته. وجود الزوجة والولد والشريك والنظير...إلخ ينطبق فقط على مخلوقاته ولا يليق إلا بها - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الله عزوجل لا يتجسد على الإطلاق في بشر أو أي كائن كي يراه الإنسان؛ لذا يعجز العقل البشري عن تصوره، ويحرم التعبير عنه بأي صورة أو شكل. بل يرسل إلى البشر رسولًا بعد رسول، تعريفًا به عز وجل، وترغيبًا، وتنبيهًا، وإرشادًا، ويهديهم إلى طريقه المستقيم بكتاب بعد كتاب.

الله عزوجل وحده من يهب الحياة وهو وحده من ينتزعها، وهو تام القدرة، لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا يُعجزه شيء شاءه، لا معبود بحق غيره، جل وعلا. كل ما عُبِد من دونه معبود باطل (سواء كان بشرًا أو ملكًا أو حجرًا أو شجرًا أو غير ذلك من المخلوقات أو الجمادات). فالعبادة بكل أنواعها الظاهرة والباطنة حق خالص لله تعالى، فليس لأحد أن يُعبَد إلا الله وحده. الصلاة والصوم والزكاة والذبح والنذر والدعاء والتوكل وسائر العبادات لا تكون إلا لله وحده بلا شريك أو وسيط. صَرْف أي عبادة أو توجيهها لغير الله هو شِرْك (مُحبِط للعمل، ويخلد صاحبه في النار إذا مات مُصِرًّا عليه).

الله هو الاسم المفرد العلم للإله الواحد الحق، وهو اسم جامع لمعاني كل الأسماء الحسنى والصفات العلى وحقائقها، تفرد به الخالق سبحانه وخص به نفسه، ومنع أن يتسمى به أحد غيره. وأصل اشتقاقه في اللغة العربية من: "الإله" يعني المَأْلُوه، المعبود؛ وحده المستحق أن يُؤلَّه ويُعبَد من جميع الخلق. اسم الجلالة (الله) لفظة فريدة، فهو لا يُثنى ولا يُجمع ولا يُؤنَّث، ويدل على المعبود والخالق في الديانات التوحيدية الثلاث. أعظم تعريف، مختصر وشامل في آنٍ واحد، لله عز وجل هو الذي جاء في سورة الإخلاص (١١٢: ١-٤): ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ.﴾

في الإلحاد، لا تعريف لكلمة "الله"

الإلحاد، مشتق من الكلمة الإغريقية ATHEOS (بدون إله)، مذهب ينكر وجود إله أو لا يؤمن به؛ بعبارة أوضح هو يرى أن هذا الكون ليس له خالق حكيم، ولا مشرع للخلق يأمرهم وينهاهم ويحل لهم ويحرم عليهم، ولا قاضٍ عادل يحاسب كل مخلوق على أعماله! فمن وجهة نظر الإلحاد لا يوجد شيء وراء هذا العالم الطبيعي، المادي، المحدود، المغلق؛ ولا أبعد منه. الكون بكل ما فيه من مخلوقات وعجائب نشأ بشكل مادي عشوائي ولا يحتاج إلى خالق! ليس هناك تعريف أو معنى لكلمة "إله" في الإلحاد؛ أولًا: لرفضه التام لهذه الحقيقة، وثانيًا: لاعتباره أن مهمة تعريف الإله الحق تقع على عاتق من يؤمن بوجوده.

الإلحاد يحكم على أي شيء خارق للطبيعة أو متسامٍ عنها بأنه خارج قبضة العقل البشري؛ لا يمكن للعقل البشري الوصول إليه أو إدراك كيفيته، وبالتالي يتعذر عليه إثباته بالتجربة العلمية؛ مما يجعله مستحيل الوجود. الإلحاد يؤمن فقط بالحقائق الصلبة المرئية والعلوم التجريبية.

الإلحاد يصر على أن تقع جميع المسائل داخل نطاق تفكير وإدراك واستيعاب العقل البشري، بصور يمكن رؤيتها واختبارها وقياسها، وأي شيء يتجاوز حدود التجربة الإنسانية المحسوسة أو إطار العالم المادي يصفه الإلحاد بأنه مجرد خيال زائف!

وبوجه عام، يرى الملحدون أن فكرة وجود إله نشأت نتيجة للضعف البشري؛ فهي مجرد عكاز نفسي يساعد العاجزين وضعاف النفوس على السير في الحياة، أو أسطورة قديمة وشخصية خيالية دبرتها بعض العقول البدائية كمسكن للنفس، أو أداة للتحكم في العامة من الناس والسيطرة عليهم، أو رادع أخلاقي، أو محاولة لشرح الظواهر الطبيعية. فالحياة إجمالًا في نظر الملحدين لا تتطلب وجود إله، أو أنه لا يملك أي قوة أو سلطان عليهم، ولا تأثير له على حياتهم بأي شكل من الأشكال.

وعلى الرغم من الإلحاد لا يستطيع، سواء عن طريق المنطق أو العلم، أن يثبت بشكل مؤكد ادعاءه الرئيسي؛ وهو عدم وجود إله، فهو يلقي عبء الإثبات وتقديم الدليل على هؤلاء الذين يؤمنون بوجود إله. وتنقسم المواقف الملحدة إلى فئتين عريضتين: الفئة الأولى: تفتقر إلى الدليل المقنع والبرهان القاطع على وجود إله، والثانية: تجد الأدلة غير منطقية أو مناقضة لوجود إله، وفي نهاية المطاف تفترض عدم وجود من يستحق أن يُوصَف ويُلقَّب بالإله.



من وجهة نظر الإلحاد لا يوجد شيء وراء هذا العالم الطبيعي، المادي، المحدود، المغلق؛ ولا أبعد منه

أسماء الله وصفاته في الإسلام

أسماء الله عز وجل وصفاته: هي الأوصاف التي تعطي فهمًا صحيحًا لحقيقة الإله الحق وكيف يجب أن يكون. يبين القرآنُ الكريمُ، وهو آخِرُ الكتب السماوية المنزَّلة، حقيقةَ الصفات التي يجب أن يكون عليها الإله الحق، والتي تنقسم إلى صفات الكمال التي تليق بالله عز وجل (كالعلم والحكمة والرحمة والحِلم والمغفرة والكرم واللطف والعدل)، وصفات النقص التي تنافي الألوهية ولا تليق بالله عز وجل (كالموت والجهل والنسيان والعجز والظلم).

ويحذر القرآن الكريم من وصف الله بصفات زائدة لم يصف الله بها ذاته، أو صفات لا تليق به (مثل وصف الله بصفات البشر كشعوره بالتعب بعد خلق السماوات أو الحاجة إلى الوَلَد)، فأي ذِكْر أو محاولة لشرح صفات الله عز وجل بعيدًا عن القرآن وصحيح السُنَّة هو مجرد افتراضات، وهي محض تخمينات، أو خرافات - ليس أكثر. يقول القرآن الكريم مؤكدًا هذا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.﴾ (الصافات ٣٧: ١٨٠-١٨٢)



الصفات التي تليق بمقام الألوهية

يعرض القرآن الكريم في سورة الحشر، وسورعديدة أخرى، جانبًا من صفات الله عز وجل لبيان الصورة التي لابد أن يكون عليها الإله الحق:

- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ.﴾
- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ.﴾
- ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.﴾
- ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ.﴾ (الأنعام ٦: ٣)
- ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ.﴾ (يونس ١٠: ٣١)

الصفات التي تنافي مقام الألوهية

ينفي القرآن الكريم في كثير من آياته أي صفة لا تليق أو تتعارض مع جلال الله وكمال ألوهيته وربوبيته ووحدانيته، وفي ذلك بيان للصورة التي يستحيل أن يكون عليها الإله الحق، من بينها:

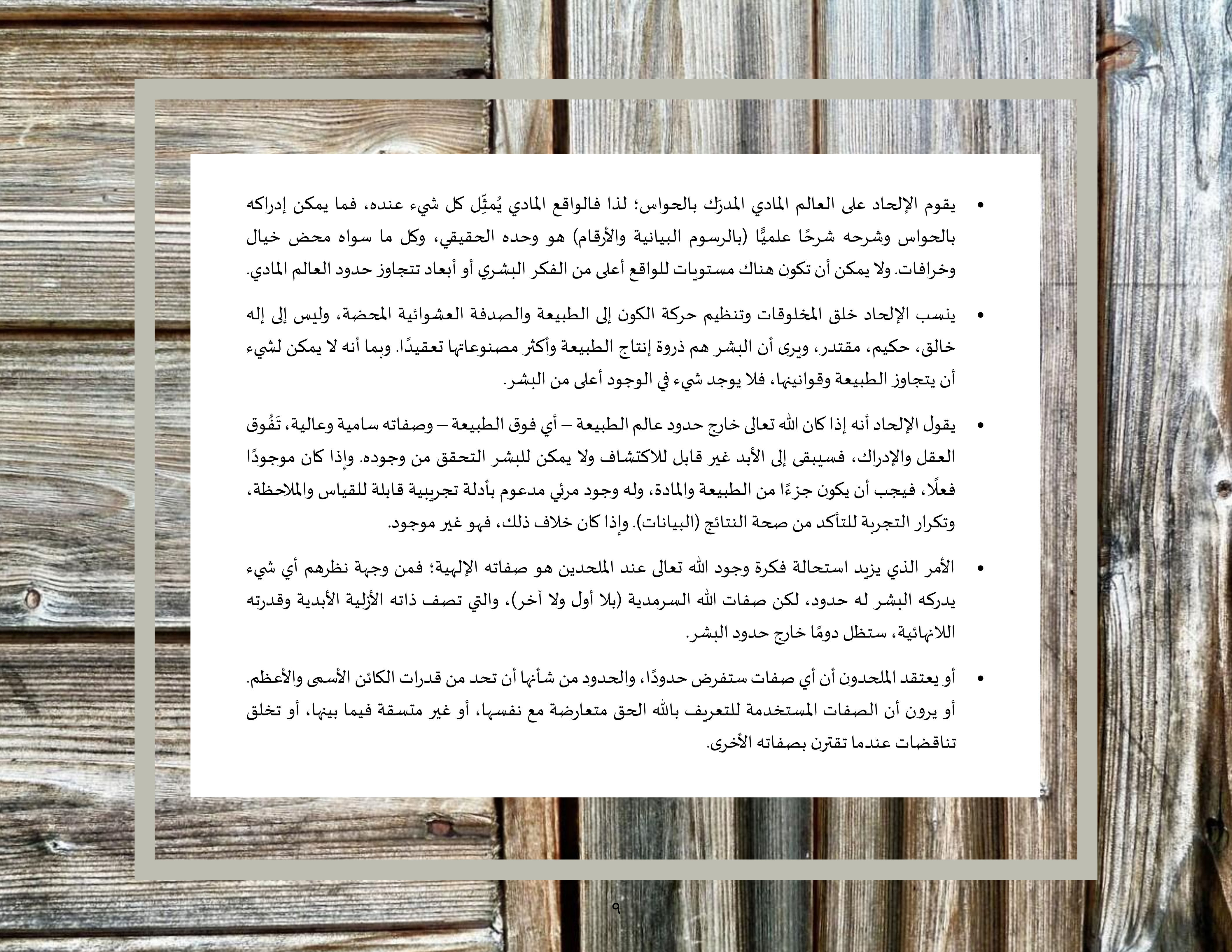
- ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.﴾ (البقرة ٢: ٢٥٥)
- ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ.﴾ (الأنعام ٦: ١٤)
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.﴾ (آل عمران ٣: ٥)
- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ.﴾ (إبراهيم ١٤: ٤٢)
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا.﴾ (النساء ٤: ٤٠)
- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ.﴾ (المؤمنون ٢٣: ١١٥)
- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ.﴾ (الملك ٦٧: ٣)
- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ.﴾ (البقرة ٢: ١١٦-١١٧)



نقطة الجدل الرئيسية للإلحاد ضد وجود الله عز وجل ترتكز على السؤال التالي: كيف يمكن الاعتقاد في إله عظيم، متفرد، متعال، لا يمكن إدراك كنهه أو فهم ذاته، إله غير مرئي، لا محدود، خارج نطاق علم البشر مهما بلغ.

الإيمان بالغيب يمثل القاعدة الأساس للإيمان كله؛ فذات الله عز وجل تختلف تمامًا عن كل الموجودات والمخلوقات والظواهر، فالله خارج عالم الطبيعة والمادة. هو من أوجدها من العدم، وهو السبب في استمرارها، وهو الذي يسيطر عليها ويضبطها وحده بلا شريك أو مُعِين. وهو بعيد كل البعد عن أي مقارنه يمكن أن يعقدها العقل البشري. فمستحيل على العقل البشري المحدود بحدود الزمان والمكان والقدرة أن يصل إلى معرفة ذات الله تعالى في الكنه والحقيقة (وهذا أمر غير مطلوب من البشر أصلًا)، ويتعامل معها تعاملًا مباشرًا من خلال الملاحظة، والرصد، والتحقيق، والبحث العلمي.

استحالة الصفات الإلهية في الإلحاد



- يقوم الإلحاد على العالم المادي المدرَك بالحواس؛ لذا فالواقع المادي يُمثِّل كل شيء عنده، فما يمكن إدراكه بالحواس وشرحه شرحًا علميًّا (بالرسوم البيانية والأرقام) هو وحده الحقيقي، وكل ما سواه محض خيال وخرافات. ولا يمكن أن تكون هناك مستويات للواقع أعلى من الفكر البشري أو أبعاد تتجاوز حدود العالم المادي.

- ينسب الإلحاد خلق المخلوقات وتنظيم حركة الكون إلى الطبيعة والصدفة العشوائية المحضة، وليس إلى إله خالق، حكيم، مقتدر، ويرى أن البشر هم ذروة إنتاج الطبيعة وأكثر مصنوعاتها تعقيدًا. وبما أنه لا يمكن لشيء أن يتجاوز الطبيعة وقوانينها، فلا يوجد شيء في الوجود أعلى من البشر.

- يقول الإلحاد أنه إذا كان الله تعالى خارج حدود عالم الطبيعة – أي فوق الطبيعة – وصفاته سامية وعالية، تَفُوق العقل والإدراك، فسيبقى إلى الأبد غير قابل للاكتشاف ولا يمكن للبشر التحقق من وجوده. وإذا كان موجودًا فعلًا، فيجب أن يكون جزءًا من الطبيعة والمادة، وله وجود مرئي مدعوم بأدلة تجريبية قابلة للقياس والملاحظة، وتكرار التجربة للتأكد من صحة النتائج (البيانات). وإذا كان خلاف ذلك، فهو غير موجود.

- الأمر الذي يزيد استحالة فكرة وجود الله تعالى عند الملحدين هو صفاته الإلهية؛ فمن وجهة نظرهم أي شيء يدركه البشر له حدود، لكن صفات الله السرمدية (بلا أول ولا آخر)، والتي تصف ذاته الأزلية الأبدية وقدرته اللانهائية، ستظل دومًا خارج حدود البشر.

- أو يعتقد الملحدون أن أي صفات ستفرض حدودًا، والحدود من شأنها أن تحد من قدرات الكائن الأسمى والأعظم. أو يرون أن الصفات المستخدمة للتعريف بالله الحق متعارضة مع نفسها، أو غير متسقة فيما بينها، أو تخلق تناقضات عندما تقترن بصفاته الأخرى.



المسألة مسألة منطق

سُئل أعرابي: بِمَ عرفتَ ربك (كيف عرفت وجود الخالق)؟

فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟!

الكون يحمل بصمات تصميم ذكي محكم، لا تخطئه العين المجردة، يشير في جميع أرجائه إلى وجود خالق



بصائر قرآنية

آية قرآنية واحدة تضع البشر أمام الحُجَّة الأقوى على حتمية وجود خالق لهم:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ.﴾ (الطور٥٢: ٣٥)

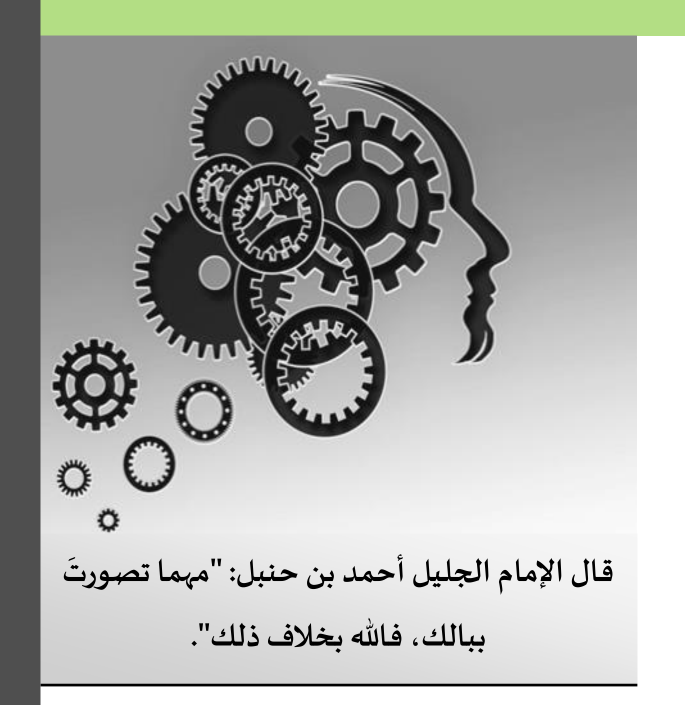
... ولهذا الكون:

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ.﴾ (الطور٥٢: ٣٦)

أي شيء موجود لا بد أن يكون له خالق. حقيقة لا يمكن إنكارها، فالشيء لا يأتي من لا شيء. فما دام أن شيئًا ما موجود، وما دام الشيء لا يمكن أن يُوجِد نفسَهُ بنفسه، فلابد له من مُوجِد يُفسّره.

وفق حسابات المنطق، البشر موجودون والسماوات والأرض موجودة أيضًا. البشر لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا السماوات والأرض أو قوانين الطبيعة أو الظواهر الكونية المختلفة؛ لذا فلابد لهم جميعًا من خالق – خالق فرد صمد، غني بذاته غنًى مطلقًا؛ موجود بدون مُوجِد.

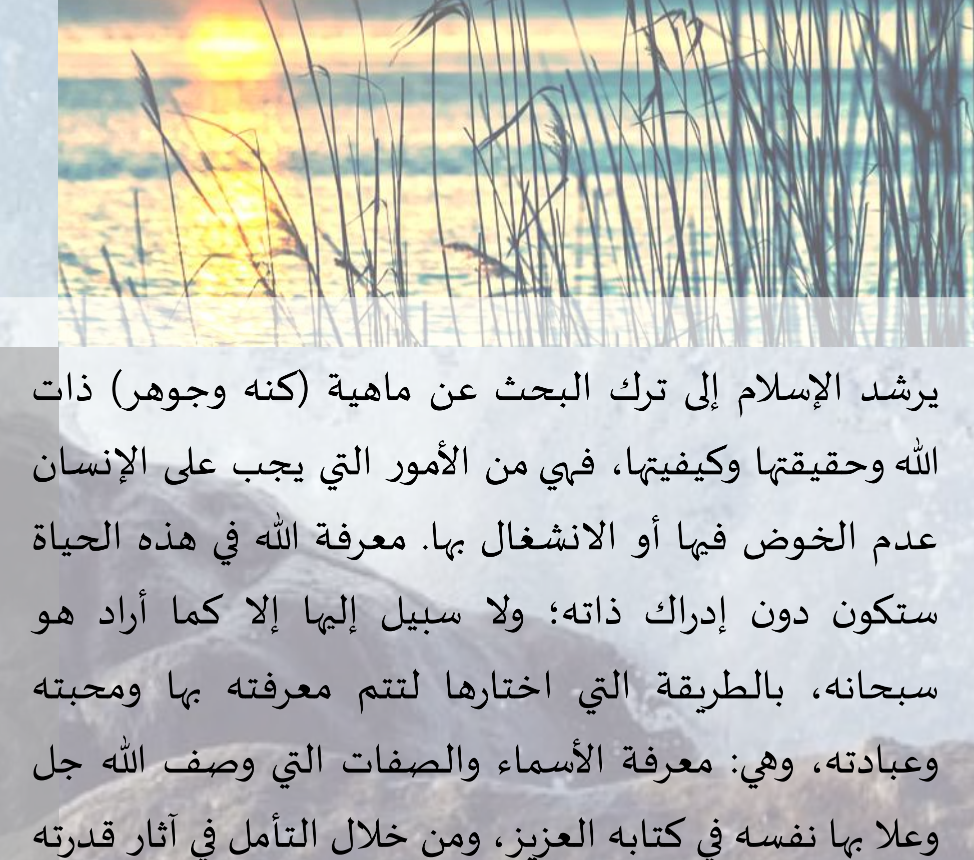
ذات الله عز وجل



قال الإمام الجليل أحمد بن حنبل: "مهما تصورتَ ببالك، فالله بخلاف ذلك".

- معرفة الله تبارك وتعالى ليست مجالًا للتخمينات الشخصية أو الآراء الفردية؛ فالسبيل الوحيد في الإسلام لمعرفة الله رب العالمين المعرفة الحقة هو الوحي السماوي.
- الطريق إذن لمعرفة الله هو الله ذاته. يصف الله نفسه في كتابه العزيز بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.﴾ (الأنعام ٦: ١٠٣) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.﴾ (النحل ١٦: ٧٤) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.﴾ (الشورى ٤٢: ١١)
- وفقًا للقرآن، كنه ذات الله تعالى تتجاوز طاقة إدراك الذهن البشري واستيعابه؛ فليس بمقدور الخيال البشري أن يتصور أو يتوهم الله عز وجل؛ فالتخيل عبارة عن أفكار تتشكل من أجزاء من الواقع، ولا يمكن للخيال البشري أن يتصور إلا من خلال ما يراه ويختبره في العالم المادي، أما الخالق عز وجل، فلا شيء من هذا العالم يكافئه، أو يماثله، أو يساويه، من قريب أو بعيد. يقول الله عز وجل واصفًا نفسه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ.﴾ (الإخلاص١١٢: ٤)
- من البديهي أن يعجز عقل الإنسان عن معرفة من ليس كمثله شيء؛ لذا نهى النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن التفكر في ذات الله وقال: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَتَهْلِكُوا». (أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني عن أبي ذر). العقل البشري له حدود إدراكية وزمانية ومكانية لا يمكن أن يتخطاها؛ العقل يستطيع أن يعرف وجود الله، ولكنه يعجز عن معرفة ذاته جل وعلا؛ لأن الله أعلى من أن يحيط به العقل البشري المخلوق المحدود.
- هذه المعرفة التامة لله مستحيلة، ولا يبقى أمام الإنسان إلا المعرفة النسبية من خلال أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى التي وصف بها نفسه في القرآن الكريم، ومن خلال عجائب صنعه في الكون. فهذا الكون بجميع ما فيه من مخلوقات يعكس جلال الخالق عز وجل – وقدرته وعظمته من أصغر وُرَيْقَة عُشْب على الأرض الى أبعد نجمة في السماء.

سبل معرفة الله تعالى

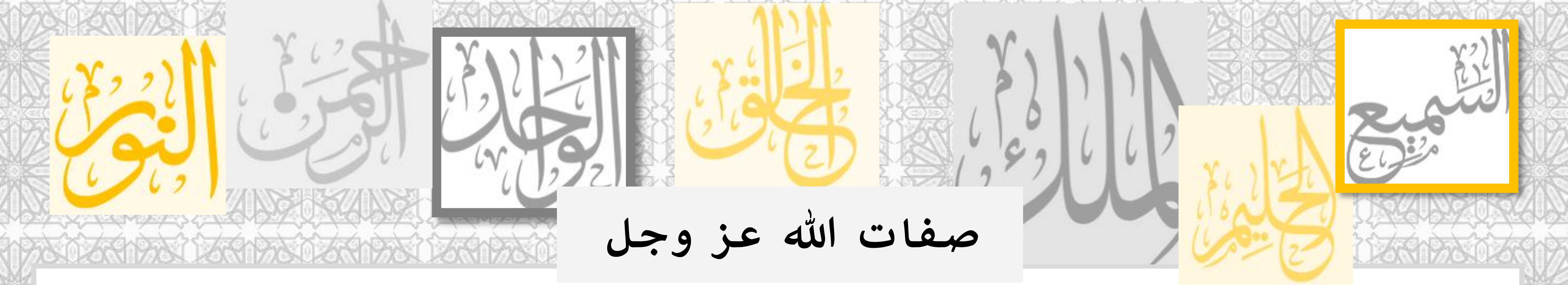


٢. بصمات الخالق في الكون

يرشد الإسلام إلى ترك البحث عن ماهية (كنه وجوهر) ذات الله وحقيقتها وكيفيتها، فهي من الأمور التي يجب على الإنسان عدم الخوض فيها أو الانشغال بها. معرفة الله في هذه الحياة ستكون دون إدراك ذاته؛ ولا سبيل إليها إلا كما أراد هو سبحانه، بالطريقة التي اختارها لتتم معرفته بها ومحبته وعبادته، وهي: معرفة الأسماء والصفات التي وصف الله جل وعلا بها نفسه في كتابه العزيز، ومن خلال التأمل في آثار قدرته وعجائب صنعه في الكون.



١. الأسماء والصفات الحسنى



صفات الله عز وجل

- وفقًا للإسلام، الله عز وجل ليس إلهًا بعيدًا، صامتًا، غير مكترث بالخلق. تظهر هذه الحقيقة بقوة ووضوح في جميع أرجاء القرآن الكريم؛ فعلى سبيل المثال، يقول الله تعالى في القرآن الكريم أنه قريب جدًّا من كل إنسان في كل لحظة، أقرب إليه من حبل الوريد الذي في عنقه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.﴾ (ق ٥٠: ١٦) يعلم ما تخفيه نفسه من أسرار وما يظهره من أقوال وأفعال، لا يخفى عليه من أمره شيء: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ.﴾ (النمل ٢٧: ٧٤) يسمع كلامه ويرى جميع أحواله، ليس بغافل عن فرد من خلقه – فليطمئن: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ.﴾ (طه ٢٠: ٤٦) فهو دائمًا قريب، يسمع ويرى، يجيب دعوة أي داعٍ دعاه ويجيب دعوة المضطر ولو كان عاصيًا، أو مذنبًا، أو حتى كافرًا، ما دام قد التجأ إليه، ووقف ببابه، واعتمد عليه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.﴾ (البقرة ٢: ١٨٦) وقد أوكل تعالى بكل نفس من يحفظها ويحرسها من ملائكته ليلًا ونهارًا : ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ.﴾ (الطارق ٨٦: ٤)

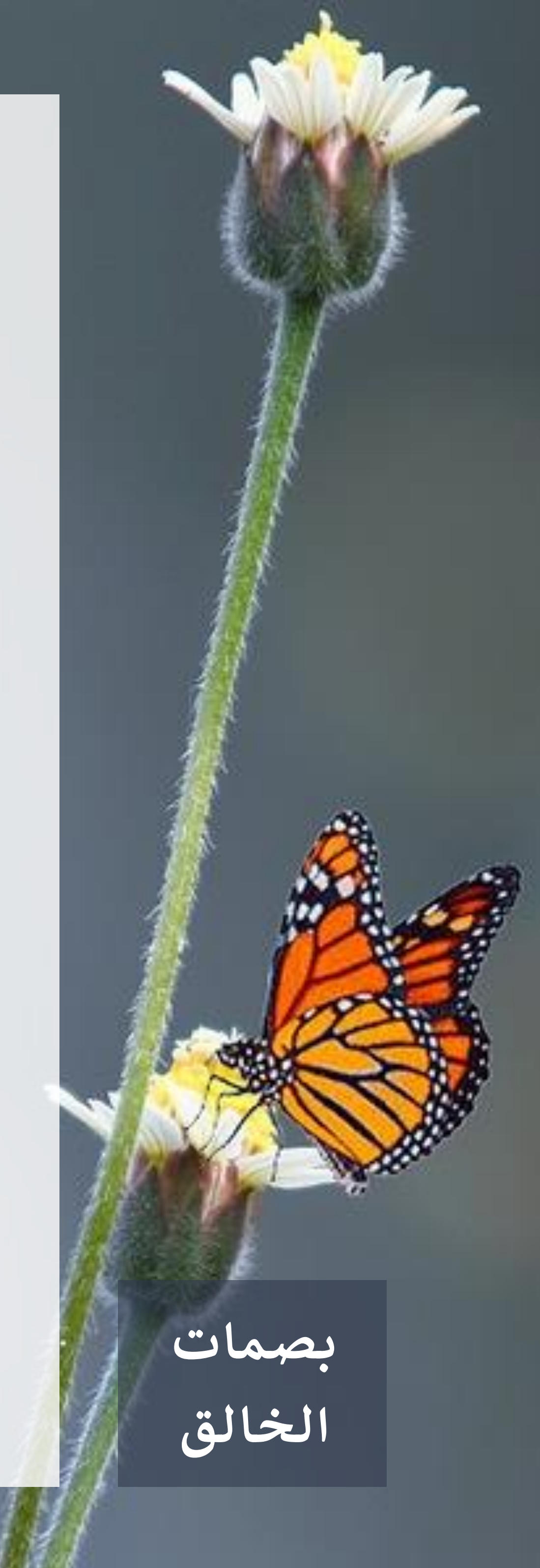
- يصف الله تبارك وتعالى نفسه في القرآن الكريم بالعديد من الأسماء الحسنى والصفات العلا ليعرِّف بها نفسه إلى خلقه، منها: الواحد، الأحد، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، القوي، المجيب.

- يستطيع البشر إدراك أسماء الله وصفاته الحسنى وفهمها؛ فلديهم القدرة – بشكل ما – على الشعور بتلك الصفات، كما يمتلكون قدرًا منها بدرجات متفاوتة بينهم، على نحو يناسب طاقتهم البشرية وطبيعتهم المحدودة الفانية، لكن الله وحده هو من يمتلكها بشكل مطلق وكامل. وتشمل هذه الصفات: السمع، والبصر، والرحمة، والصبر، والعدل وغيرها من الصفات التي نُسِجت في كيانهم؛ فهي مألوفة لديهم، يسهل عليهم إدراكها وممارستها تلقائيًّا. ويمكنهم التعرف على جلال أسماء وصفات الله تعالى وجمالها وكمالها، مستعينين بالقدر المحدود الذي لديهم من تلك الصفات كوحدة تقدير.

- يستطيع البشر من خلال معرفة الأسماء الحسنى إدراك الله ووجوده. فكل اسم وصفة لله تلامس وترًا خاصًّا داخل نفس الإنسان، وتوقظ وعيًا جديدًا، وتلبي احتياجًا مختلفًا، وتنشأ عاطفة متفردة، وتسمح بعلاقة وثيقة ومستمرة بين الإنسان وربه عز وجل.

- يحث الله تعالى البشر في آية قرآنية كريمة أن يدعوه ويسألوه حوائجهم بأسمائه الحسنى، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا.﴾ (الأعراف ٧: ١٨٠) كالغفور لطلب المغفرة والشافي لطلب الشفاء – مع تخير الاسم الذي يناسب المسألة وموضوع الدعاء.

- لا يحتاج البشر - ولا ينبغي لهم - البحث عن معجزات أو ظواهر خارقة للطبيعة للوصول إلى الله عز وجل. فقط يحتاجون إلى النظر داخل أنفسهم، في تكوينهم الطبيعي، والنظر حولهم، في أرجاء عالمهم الطبيعي، لاكتشاف الله سبحانه وتعالى.
- الساعة تدل على وجود صانع ساعات. هذا في الجمادات، ويصبح الدليل أقوى بالنسبة للمخلوقات الحية، من أضخم كواكب المجموعة الشمسية إلى أدق الكائنات المجهرية، فتصميمها أكثر براعةً وتعقيدًا. بالمثل أيضًا، هذا العالم يدل على صانع صنعه؛ وهو الله جل وعلا.
- يتجلى إعجاز الله الخالق عز وجل وإبداعه في أصغر مخلوقاته وأدقها تمامًا كما في أكبرها وأكثرها ضخامةً؛ في تكوين النملة الصغيرة كما في بنيان الفيل الكبير، في التركيب المعقد للخلايا الدقيقة كما في تشكيل المجرات والمجموعة الشمسية، في الشقوق العميقة المتعرجة تحت البحار كما في الأنهار المتدفقة وقمم الجبال الشاهقة، وفي تغريد الطيور كما في دوي الرعد.
- يقف هذا الكون الفسيح، في حركته الدائمة من الامتلاء والفراغ من الكائنات الحية، كدلالة هائلة وكافية على عظمة خالقه، ويضع بين الأيدي كتابًا ضخم الصفحات، لا ينضب ولا يتوقف عن وصف مؤلفه الوحيد؛ الله جل جلاله. القرآن في مئات الآيات لا يدعو فقط، بل يحث على فتح الأبصار والأسماع والعقول لهذا الكون والتأمل في عجائبه لمعرفة خالقه.
- تقول إحدى آيات القرآن التي تحفز على النظر في هذا الكون العجيب: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.﴾ (البقرة ٢: ١٦٤)
- الاقتناع الفكري هو أهم ما يميز البشر عن سائر المخلوقات؛ لذا يخاطب القرآن الكريم العقل باستمرار، وآياته مليئة بالأفعال التي تحث وتحفز كل إنسان على اكتساب المعرفة باستخدام عقله وحواسه وقدراته في عملية مستمرة من الملاحظة اليقظة والدقيقة. تتضمن الأفعال التي وردت في القرآن الكريم للحث على التأمل والسعي وراء المعرفة؛ التفكر كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ...﴾ (البقرة ٢: ٢٦٦)، والتدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ...﴾ (محمد ٤٧: ٢٤)، والتبصر: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ...﴾ (السجدة ٣٢: ٢٧)، والتذكر: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ...﴾ (إبراهيم ١٤: ٢٥)، والتفقه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ...﴾ (الأنعام ٦: ٦٥)، والتعقل: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ...﴾ (يس ٣٦: ٦٨)، والنظر: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ...﴾ (الغاشية ٨٨: ١٧)، والاعتبار: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ...﴾ (الأعراف ٧: ١٧٤)، والتوسم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ...﴾ (الحجر ١٥: ٧٥)، والتيقن: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ...﴾ (الجاثية ٤٥: ٢٠)، والعلم ﴿... وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.﴾ (الأنعام ٦: ١٠٥).





﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾

(الأعراف ٧: ١٨٥)

{أَوَلَمْ يَنظُرُواْ}؛ أي: نظر استدلال: {فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ} من الشمس والقمر والنجوم والسحاب.

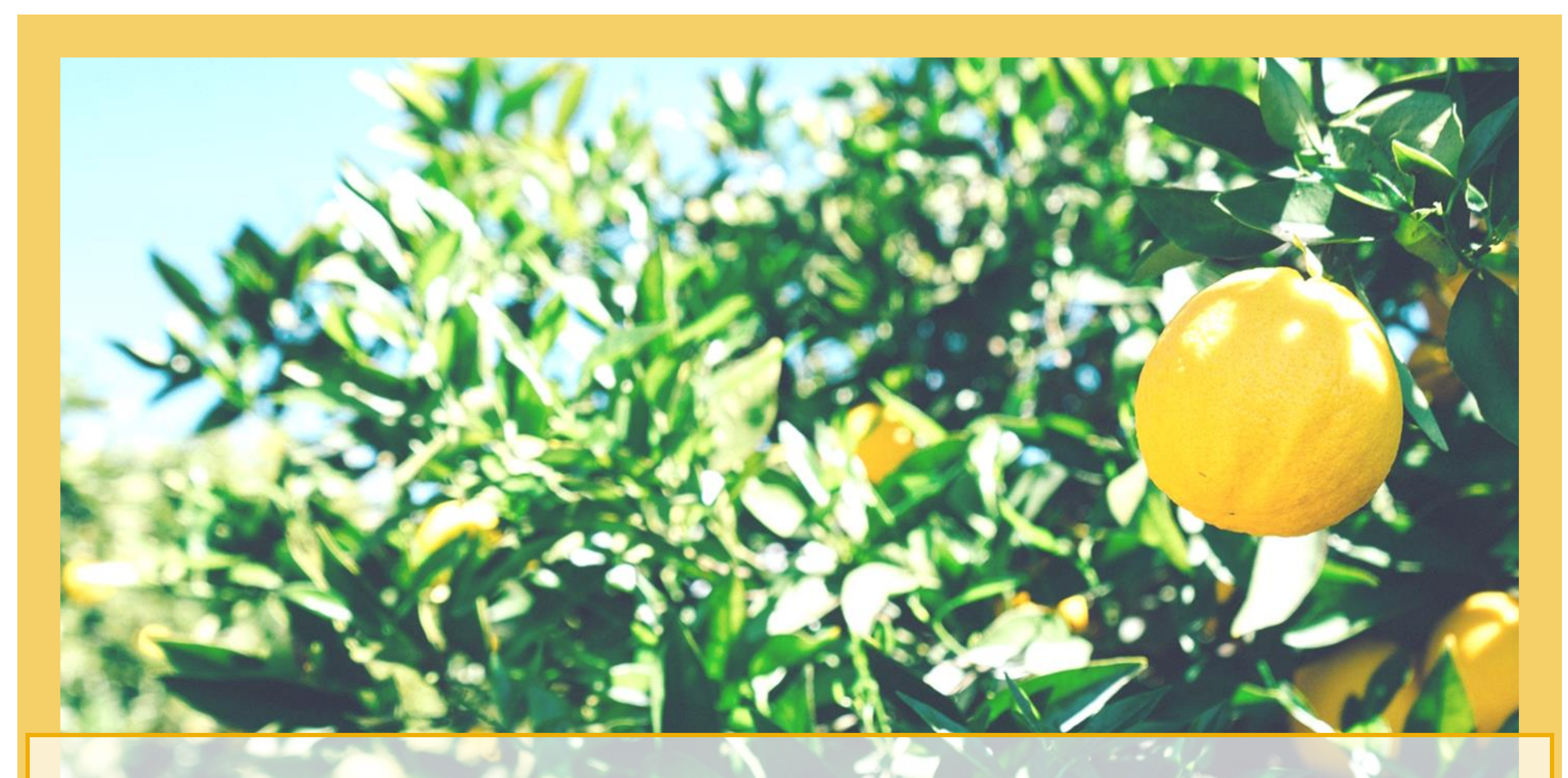
{وَالأَرْضِ} أي: وفي ملكوت الأرض، من البحار والجبال والدواب والشجر.

{وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ}؛ أي: وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء، من أجناس لا يحصرها العدد، ولا يحيط بها الوصف.

تفسير القاسمي (محاسن التأويل)

يذكر القرآن بأن المخلوقات تتحدث عن خالقها وموجدها.

على الرغم من أن رؤية الله غير ممكنة في الحياة الدنيا، إلا أن وجوده و آثار صفاته تتجلى في مصنوعاته.



﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(الرعد ١٣ :٤)

خلق الكون

- وصف خلق السماوات والأرض في القرآن الكريم هو في الأساس رسائل من الله تعالى وليس سردًا لحقائق أو وقائع تاريخية. إنما هو يهدف إلى تحفيز القارئ والمستمع على تأمل ما في الكون من عظمة وقوة وسعة ونظام، ثم التوقف والتفكر في الخالق وراء ذلك كله. مثال على ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ.﴾ (آل عمران ٣ :١٩٠)

- يتخلل وصف خلق السماوات الأرض آيات تمجيد الله تعالى وقدرته، مع ذكر جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه، ثم حث البشر على التأمل، بفضول وشغف، في خلق أنفسهم وخلق الكون من حولهم. مثال على ذلك قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ **كَيْفَ** خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ **كَيْفَ** رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ **كَيْفَ** نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ **كَيْفَ** سُطِحَتْ.﴾ (الغاشية ٨٨: ١٧-٢٠)

- يصرح القرآن بوضوح تام أن الكون كان له بداية، وأن الله عز وجل هو مسبب تلك البداية. فالله المقتدر إذا أراد أن يخلق شيئًا – أي يوجده من العدم – فقط يقول له "كن" فيكون (ولا يحتاج إلى مادة يصنعه بها؛ بل يكفيه أمره). يقول سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ.﴾ (البقرة ٢: ١١٧)

- يشير القرآن الكريم في وصفه لخلق السماوات والأرض بأن الكون كله بدأ ككتلة ابتدائية واحدة، ثم حدث الفَتْق (الشق) لتلك الكتلة كما يسميه القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.﴾ (الأنبياء ٢١ :٣٠) أو كما يسميه العلم "الانفجار العظيم (Big Bang)" وملخص تلك النظرية أن مادة الكون كلها كانت متجمعة في نقطة واحدة كثيفة انفجرت إلى الخارج.

- ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ الرتق في اللغة: الضم والالتحام، وهو ضد الفتق: الفصل بين شيئين متصلين. وهاتان الكلمتان تُستخدَمان مع النسيج، فعندما يُمزَّق النسيج ويُباعَد بين خيوطه؛ يُقال: (فُتِق الثوب)، والرَّتْق هو العكس، أي جَمْع وضَمُّ هذا النسيج. فمعنى قوله تعالى ﴿رَتْقًا﴾ أي الشيء الملتحم الملتصق؛ يعني أن السماوات والأرض كانتا شيئًا واحدًا ملتصقتين، أو ملتحمتين، ولا فضاء بينهما، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، ففصل الله بينهما.

- الانفجار لا ينتج إلا الفوضى والدمار، ولا يمكن أن ينتج كونًا منظمًا تسير حركته وفق قوانين محكمة. من وجهة نظر القرآن في بداية الخلق، كل ما في الكون، بما في ذلك السماوات والأرض، كان شيئًا واحدًا متصلًا بعضه ببعض، متلاصقًا بلا فاصل، ثم تمت عملية الفصل والتفكك كما عبَّر عنها القرآن بدقة مستخدمًا لفظة "الفتق"، والتي تحمل دلالات الدقة والعناية والإرادة التي يجب أن تتوافر عند شق وحل الغرز. فالفتق هنا يدل على عملية محكمة ومنظمة، وليس مجرد حدث عشوائي، وهذا ما يتوافق مع الكون المصمم بذكاء والمعد بعناية الذي تلا ذلك. فالخياط حينما يقوم بفتق قطعة القماش ينفذ ذلك بكل عناية، بينما الانفجار يشتت المادة ويبعثرها دون نظام.



- يذكر القرآن الكريم أن الكون في أحد مراحل بداية خلقه كان كتلة غازية تفككت بأمر الله وتكوَّن منها السماوات والأرض: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ.﴾ (فصلت ٤١: ١١) من الواضح أن الدخان المذكور في الآية يتوافق مع الفرضية السديمية أو فرضية السديم (Nebular hypothesis) التي طرحها العلم الحديث، والتي تقول أن الشمس والأرض وبقية النظام الشمسي قد تكون من سديم أو سحاب دوَّار من غاز وغبار.

- في آية أخرى يخبر القرآن الكريم أن الكون بُنِيَ بإحكام وقوة، وأنه ليس ثابتًا ولكنه دائم الحركة وفي حالة توسع مستمر، فيقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ.﴾ (الذاريات ٥١: ٤٧) وما دام الكون يتمدد منذ نشأته وحتى الآن، فهذا يعني أن الكون بأسره، في لحظة ما في الماضي، بدأ هذا التمدد من نقطة مفردة صغيرة (singularity or single point) – أي كان في بدايته مضمومًا؛ أو رتقًا وفق التعبير القرآني. بمعنى آخر، عند لحظة تكوين وإنشاء معينة وقعت في الماضي، كان لهذا الكون نقطة بداية من العدم (نقطة بداية من الصفر)؛ مما يستلزم وجود مبدئ ومكون ومنشئ له.

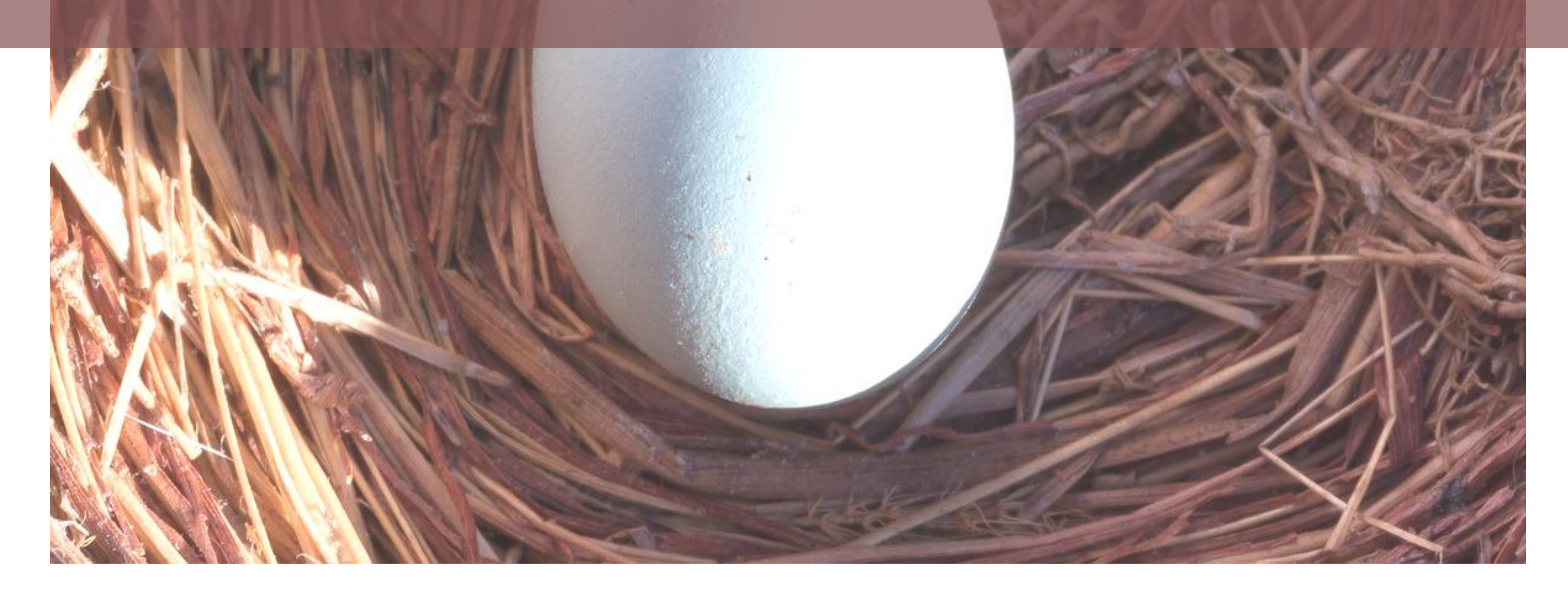
- في عام ١٩٢٩، لاحظ عالم الفلك الأميركي إدوين هابل أثناء مراقبته حركة المجرات بالتليسكوب أنها تتباعد باستمرار عن بعضها البعض وعن الأرض، بسرعات متزايدة مع الوقت، ومتناسبة طرديًّا مع المسافة بينها وبين الأرض. ملاحظة إدوين هابل أدت إلى أهم اكتشاف فلكي في القرن العشرين: الكون في حالة توسع وتمدد مستمر. كما شكلت ملاحظاته عن التوسع الكوني الأساس لنظرية الانفجار العظيم من نقطة مفردة، والتي بدورها تستلزم نشأة الكون من لا شيء. (بما أن أجزاء هذا الكون تتباعد باستمرار فلا بد أنها كانت في نقطة زمنية ما بالماضي كتلة واحدة متجمعة؛ فعند الرجوع الى الوراء زمنيًّا وعكس عملية التوسع الكوني؛ فإن الجسيمات تتقارب فيما بينها شيئًا فشيئًا وتنكمش حتى تعود إلى نقطة الصفر).

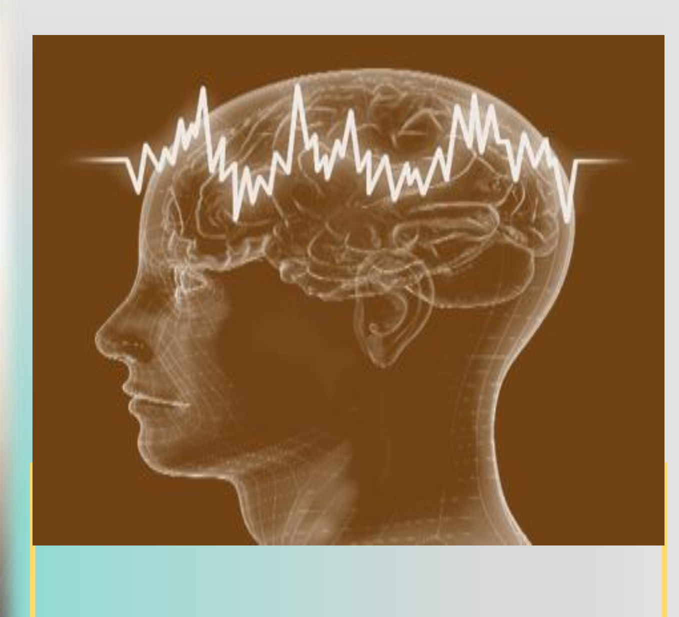
- القرآن كتاب هداية ودلالات ومنهج حياة، وليس كتاب علوم. تأتي هذه الهداية بطرق مختلفة منها معرفة أسرار الكون والإنسان، وهي معرفة لا حدود لها، ففي كل زمان يكشف الله تعالى للبشر عن حقائق علمية مدهشة (في ذات الإنسان وتركيب جسمه وأجهزته وفي أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والصواعق والنبات والحيوان والجبال والأشجار وغيرها). وسيستمر ظهور هذه الآيات على مر الليالي والأيام لهداية البشرية حتى تنتهي الدنيا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.﴾ (فصلت ٤١ :٥٣)

- يطلق القرآن دعوة »السير في الأرض «لمعرفة كيفية بدء الخلق، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾ (العنكبوت ٢٩: ٢٠) ففي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن أسرار بدء الخلق مختزنة في الأرض؛ في الصخور والمتحجرات والنيازك وأعماق البحار. فهناك دلائل وإشارات على بدء الخلق لا تأتي المعرفة بها إلا بالسير في الأرض والبحث والتنقيب فيها.

الطبيعة: كتاب الله المنظور

يرى الإسلام هذا الكون كتابًا شاسعًا، مفتوحًا، مليئًا بالحقائق والعجائب؛ هذا الكتاب مثله مثل القرآن (كتاب الله المسطور)، مطلوب من الإنسان استكشافه والتعمق في أسراره لمعرفة الله وإدراك عظمته وكمال قدرته. هناك في القرآن الكثير من الآيات تتحدث عن الكون، والأجرام، والجبال، والبحار، والكائنات، وخلق الإنسان كشهادة على قدرة الخالق العظيم، وعلمه غير المحدود، وحكمته المطلقة. هي أيضًا دليل على المصدر الإلهي للقرآن؛ فبعض نصوصه تشير إلى حقائق علمية مبهرة اكتُشِفت مؤخرًا، ولم تكن البشرية تعرف عنها شيئًا منذ أربعة عشر قرنًا وقت نزول القرآن.





﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ.﴾ (العلق ٩٦: ١٥-١٦)

وصف القرآن الكريم منطقة الناصية أو مقدم الرأس، دون بقية الأعضاء، بأنها كاذبة خاطئة، ولم يصف الشخص ذاته، ثم حذره بالكف عن هذا السلوك. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن القشرة الأمامية الجبهية (Pre-Frontal Cortex) والتي تقع مباشرة خلف الجبهة، في الجزء الأمامي من المخ، ترتبط بالسلوك والقدرة على الخداع والكذب.



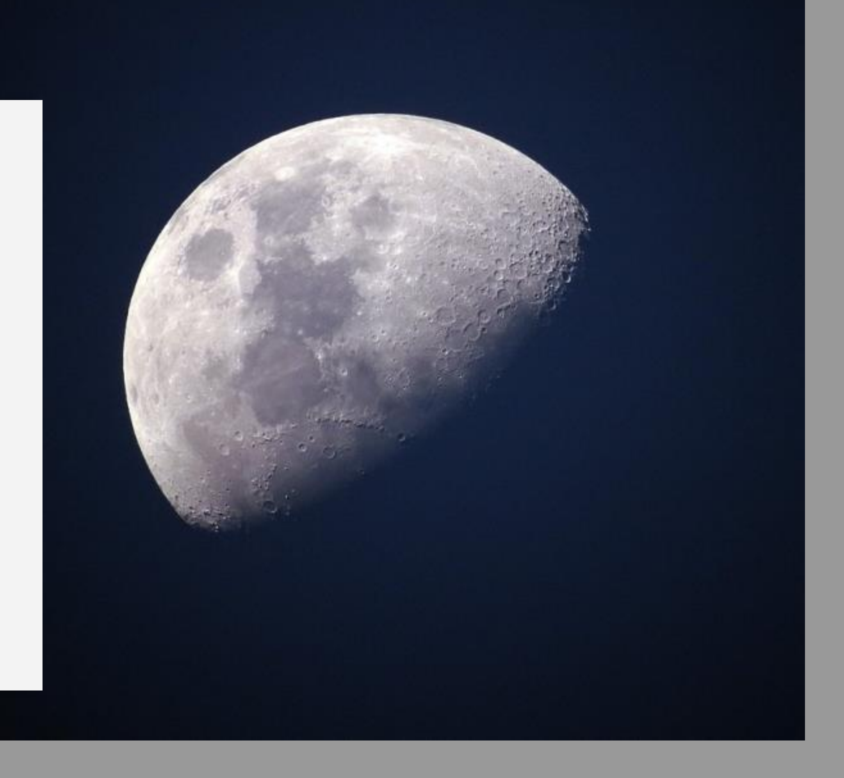
منذ أكثر من ألف وأربعمئة عام مضت، تصف الآيات القرآنية ٦-٧ من سورة النبأ الجبال بأنها أوتاد: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا.**﴾ (النبأ ٧٨: ٦-٧) وتحدد الآية ١٥ من سورة النحل دور الجبال كمثبتات للأرض: ﴿**وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ.**﴾ (النحل ١٦: ١٥)

تبين الآية ١٤ من سورة المؤمنون مراحل التطور الجنيني قبل العلم الحديث بأكثر من ألف وأربعمئة عام؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.**﴾ (المؤمنون ٢٣: ١٤)



تأملات

«سبب الكون لابد أنه كان غير مادي. إذا كان السبب ماديًّا/طبيعيًّا، فسيخضع لنفس قوانين الاضمحلال التي تحكم الكون. لذلك، السبب وراء بداية الكون لابد أنه كان خارقًا للطبيعة، أي غير مادي أو روحي. سبب يقع خارج المكان والمادة والزمان. سبب بهذه الكيفية لن يخضع لقوانين الاضمحلال والفناء؛ ومن ثم لن يكون له بداية. معنى ذلك أن هذا السبب لابد من كونه روحيًّا، أبديًّا». عالم الخليقة د. دون باتن (Dr. Don Batten)



كون سبب نفسه أو ... وُجِدَ بدون سبب

- من وجهة نظر الملحدين، الكون وكل ما يحتويه من كائنات هو نتاج صدفة محضة، شكَّلتها بعض عمليات الطبيعة الطائشة وغير الموجهة، بدون أي خطة أو غاية أو معنى؛ والكون في النهاية، لا يشير إلى يد خالق حكيم مبدع.
- وفقًا للملحدين، تقدِّم قوانين الفيزياء، وليس إرادة الله عز وجل، التفسيرَ الحقيقيَّ لكيفية ظهور الحياة على الأرض، ويرون أن الانفجار العظيم كان النتيجة الحتمية لهذه القوانين، دون الحاجة إلى أي مسببات أخرى. ولكن يجب الانتباه! هذا الاعتماد على القوانين الفيزيائية في تفسير ظهور الحياة ينسب لها القدرة على الإبداع والخلق في حين أن القوانين الطبيعية ليس لها القدرة على إحداث أي فعل. فهي، مثلها مثل سائر القوانين، مجرد شروحات وصفية (لأنماط وأنظمة طبيعية في الكون) وليست قوى إبداعية.



الكون نشأ من لا شيء، بواسطة لا شيء، ولأجل لا شيء

- جزء جوهري من تعريف القوانين العلمية أنها ثوابت لا يمكن خرقها (يعني: ليس لها استثناءات)، وإلا سقطت عنها صفة القانون. مع ذلك، من وجهة نظر الإلحاد، الكون عند نشأته خرق أحد القوانين الطبيعية الأساسية: **"لا يمكن لشيء أن يأتي من لا شيء"** وظهرت الحياة تلقائيًّا من لا شيء.
- ثم خرق الكون قانونًا آخر راسخًا للطبيعة، وهو نظرية النشوء الأحيائي (Biogenesis) التي تقول بأن **"الكائنات الحية لا تنشأ إلا من كائنات حية أخرى، ولا تتكاثر إلا من ذات نوعها"**. وهذا يستبعد تمامًا نظرية التولد الذاتي أو التخليق التلقائي (Abiogenesis or Spontaneous Generation) التي تقترح أن الحياة يمكن أن تنبثق من المادة الميتة (مثل المركَّبات العضوية البسيطة).
- الإلحاد يقوم على فرضية عدم وجود خالق؛ لذا يعتقد الملحدون أن مزيجًا من المواد الكيميائية غير الحية تطورت بذاتها تلقائيًّا، على مدى مليارات السنين، إلى خلايا حية.

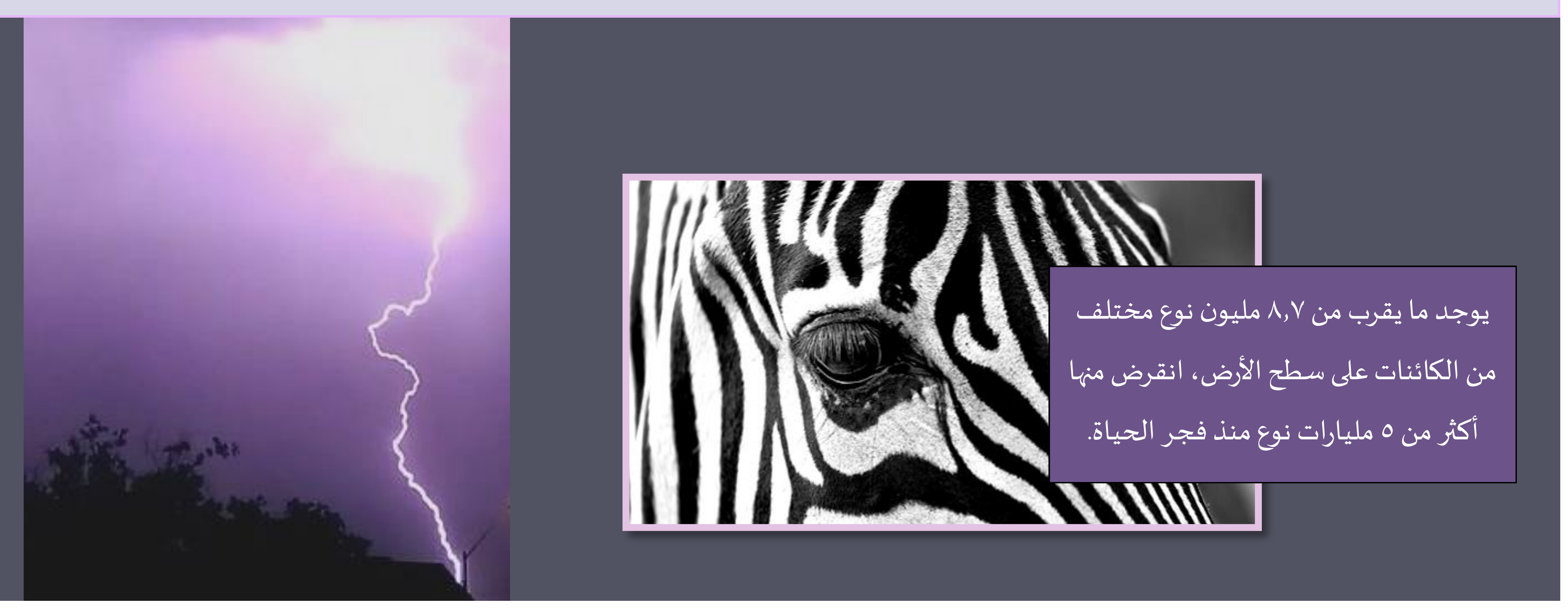
١. يؤكد أنصار نظرية التطور (Evolutionists) أن الحياة نشأت عندما أفرغت صواعق البرق، ومصادر أخرى للطاقة (مثل الشمس والبراكين)، شحناتها في حساء بدائي من المركبات الكيميائية (Primordial Soup)؛ مما أدى مصادفةً إلى تسخين الحساء البدائي وتحوُّل بعض الجزيئات العضوية البسيطة فيه إلى جزيئات بيولوجية أكبر وأكثر تعقيدًا، وفي النهاية إلى خلايا بدائية. ومع مرور الوقت شكلت تلك الخلايا نفسها إلى كائنات حية، والكائنات الحية إلى كائنات معقدة، واعية، ومدركة، وقادرة على الحركة، والإحساس، والتفكير، والسمع، والبصر، والتواصل. ثم من خلال بلايين التفاعلات الكيمائية العشوائية بين هذه المركبات على مدى مليارات السنين، تشعبت إلى جميع أشكال الحياة الموجودة الآن، بما في ذلك البشر.

٢. لكي تتكون أبسط الخلايا الحية، يجب أولًا أن تتواجد المركبات العضوية التي ستكون تلك الخلية وتقوم بالعمليات الحيوية اللازمة لحياة الكائن الحي (مثل التغذية، والتنفس، والتكاثر...إلخ). جميع الكائنات الحية تحتاج، بشكل أساسي، واحدًا وعشرين عنصرًا من العناصر الطبيعية، بنسب متفاوتة، لبناء أجسامها؛ وعليه، فإن التطور الكيميائي التلقائي لكائن أحادي الخلية يعني أن ٢١ عنصرًا من العناصر المبعثرة في الطبيعة يجب أن تجتمع مع بعضها وتتفاعل كيميائيًّا، في الوقت والمكان المناسبين، ووفقًا لتسلسل محدد ودقيق لتشكيل كميات محددة من (١) الكربوهيدرات، (٢) والدهون، (٣) والبروتينات، (٤) والأحماض النووية (الحمض النووي DNAوالحمض النووي الريبي RNA) – وهذه هي الجزيئات الحيوية الأساسية المكونة لأي كائن حي.

٣. تحتوي جزيئات الحمض النووي (DNA) على جميع المعلومات اللازمة لبناء وإدارة كائن حي أحادي الخلية أو متعدد الخلايا. يحمل الهيكل الحلزوني المزدوج للحمض النووي مجموعة هائلة من التعليمات الجينية (الصفات الوراثية) لتكوين وتشغيل جميع الكائنات الحية. يحتوي الحمض النووي الخاص ببناء أبسط خلية حية على حوالي ٥٠٠٠,٠٠٠زوج من القواعد الوراثية (المعلومات المشفرة)، كفيلة بأن تملأ أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ صفحة لو تم كتابتها! بينما يحتوي الجينوم البشري على ٣٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ زوج من القواعد الوراثية. ويجدر الإشارة إلى أن الحمض النووي مضغوط بمقدار مليون مرة أكثر من وسائل التخزين الرقمية المستخدمة اليوم. فالمليمتر المكعب الواحد من الحمض النووي يمكنه تخزين إكسابايت واحد، أي تريليون جيجابايت من البيانات.

٤. لشرح كيفية بدء الحياة، يجب أولًا معرفة مصدر المعلومات اللازمة لبناء الخلية الأولى. يؤكد العلماء أن المعلومات كيانات غير مادية، والمادة غير قادرة على صنع المعلومات؛ فالمعلومات المخزنة في الحمض النووي يجب أن تنشأ عن مصدر ذكي من خلال عملية منظمة وواعية من التفكير الإبداعي، لا مجال فيها للصدفة، أو الأحداث العشوائية، أو التدرج [نظام الحمض النووي DNA فائق الدقة والتعقيد والترتيب لابد أن ينشأ متكاملًا وفي لحظة واحدة، بدون تدرج أو تطور بطيء مع الزمن].

٥. في زمن دارون (Darwin) لم تكن الجينات (المورثات – شفرات الحياة التي تحمل الصفات الوراثية في الكائنات الحية) قد اكتُشِفَتْ بعد، وحتى الآن لا توجد نظرية تفسر نشأة الحياة الأولى وأصل الشفرة الوراثية الأولى – فالحمض النووي (DNA أو المعلومات الوراثية المشفرة) يحتاج إلى البروتين حتى يتكوَّن، والبروتين (حجر البناء الأساسي لكل الكائنات الحية) يحتاج بدوره إلى تعليمات التصنيع الخاصة به الموجودة داخل جُزيء الحمض النووي حتى يتكوَّن، وكلاهما لا يمكن أن ينشأ تلقائيًّا عن طريق تفاعلات كيميائية عشوائية حدثت بالصدفة. **فكيف بدأ كل شيء؟**



يوجد ما يقرب من ٨,٧ مليون نوع مختلف من الكائنات على سطح الأرض، انقرض منها أكثر من ٥ مليارات نوع منذ فجر الحياة.

تراكيب وأشكال معقدة حيرت حتى داروين

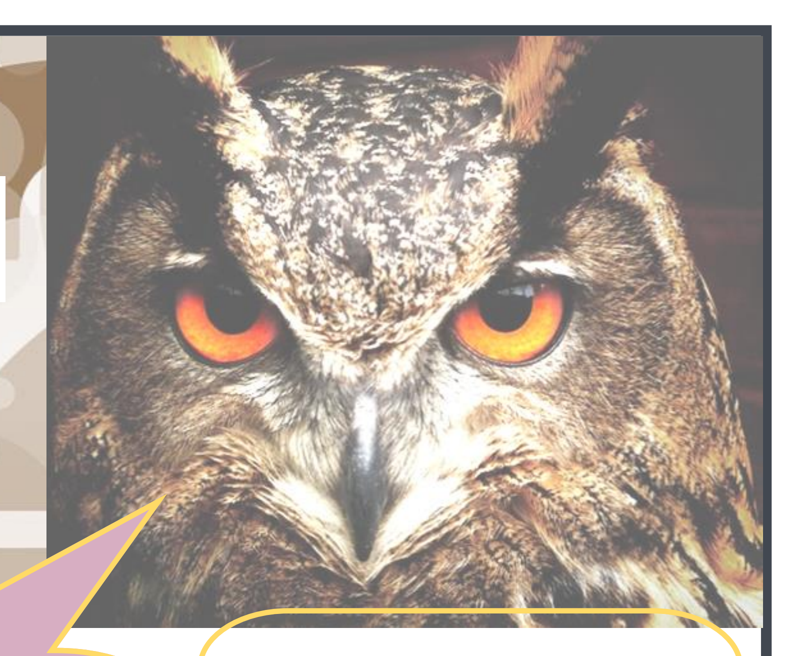


"إن منظرريش ذيل الطاووس كلما حدَّقْتُ فيه يصيبني بالغثيان"

تشارلز داروين

"لا زالت العين حتى اليوم تصيبني بالقشعريرة" تشارلز داروين

قضايا يعجز الملحدون عن الإجابة عليها



١

كيف يمكن للا شيء أن يخلق كل شيء، وكيف نشأت الحياة من مواد غير حية؟

٢

كيف يمكن لقوى "عمياء" أن تخلق بصرًا؟ أو قوى "صماء" أن تخلق سمعًا؟ أو قوى "طائشة" أن تخلق إبداعًا وحكمة؟ أو قوى جامدة أن تخلق إحساسًا ومشاعر؟

٣

ما هو الأصل الذي جاءت منه قوانين الطبيعة؟ ولماذا يطيع كل شيء في الكون تلك القوانين؟

٤

كيف يمكن لعمليات عشوائية طائشة أن تنتج شفرات ومعلومات ولغات؟

٥

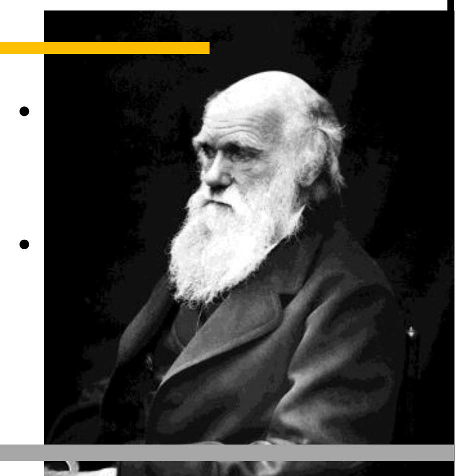
كيف يمكن لأفعال تفضيل الغير على الذات وعدم الأنانية مثل: الإيثار، والتعاطف، والتكافل، والتضحية أن تتفق مع شعار "البقاء للأصلح" التطوري؟

٦

كيف يمكن لعالم عشوائي نشأ بالصدفة أن يظهر تصميمًا وترتيبًا؟ ولماذا الكون متناغم ومتناسق ومتوازن ومهيأ بشكل مثالي لقيام الحياة؟



التعقيد المذهل في بناء الخلية الحية



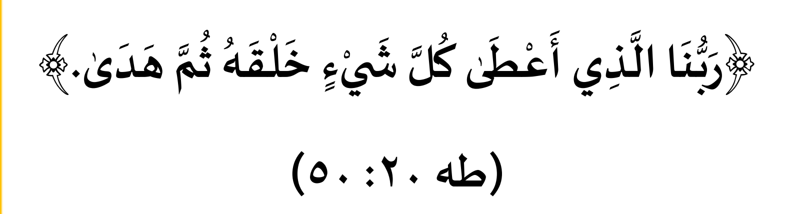
- كانت الخلية في عهد داروين ومعاصريه لا تزيد عن كونها بقعة سوداء تحت المجهر الضوئي البسيط (simple light microscope)، وهو أول مجهر استُخدِمَ في دراسة الخلية، ويتكون من عدسة زجاجية واحدة محدبة الوجهين، وقوة التكبير فيه لا تزيد عن ٢٥ مرة.
- لذلك، بسبب دراسة يعوقها الافتقار إلى الأدوات اللازمة والمتطورة لرؤية التفاصيل الصغيرة والهامة في بنية الخلية التي وفرها المجهر الإلكتروني الحديث (modern electronic microscope)، والذي يصل قدرته في التكبير إلى مليوني مرة، خلص داروين إلى الاستنتاج بأن الخلية مادة هلامية بسيطة – مجرد كرة من البروتوبلازم. ولم يتخيل داروين قط التعقيد المذهل والمعلومات المتشابكة الموجودة في أبسط خلية حية.

- أظهرت الاكتشافات العلمية اللاحقة أن الخلية لم تكن بالونًا مملوءًا بالسوائل كما اعتقد داروين، ولكن بنية معقدة غير قابلة للاختزال* (irreducible complexity) تتكون من آلات بيولوجية صغيرة عالية التقنية. قال عالم الأحياء الألماني لودفيغ فون بيرتالانفي (Ludwig Von Bertalanffy): "إن الفهم المفصل للتنظيم الفيزيائي الكيميائي في أبسط الخلايا يفوق قدرتنا بكثير".
- اعترف بيل جيتس (Bill Gates)، مؤسس شركة مايكروسوفت (Microsoft)، بمحدودية لغة الكمبيوتر مقارنةً بقدرة الخلية على تخزين البيانات الحية واستخدامها، قائلًا: "إن الحمض النووي البشري يشبه برنامج الكمبيوتر، ولكنه أكثر تطورًا بكثير من أي برنامج صنعناه".

- عبر عالم الأحياء الجزيئية مايكل دنتون (Michael Denton) عن دهشته من مدى تعقيد الخلية الحية قائلًا: "أثبتت البيولوجيا الجزيئية أنه حتى أبسط النظم الحية على الأرض اليوم، ألا وهي الخلايا البكتيرية، هي أجسام معقدة للغاية. على الرغم من أن أصغر الخلايا البكتيرية صغيرة جدًّا بشكل لا يُصدَّق، وتزن أقل من ١٠$^{-١٢}$ جرامًا، إلا أن كل واحدة منها هي في الواقع مصنع مُصغَّر حقيقي يحوي آلاف القطع المصممة ببراعة من الآلات الجزيئية المعقدة، المؤلفة كليًّا من مئة ألف مليون ذرة، وهي أكثر تعقيدًا بكثير من أي آلة صنعها الإنسان، وبالتأكيد لا مثيل لها في العالم غير الحي ".

√ " تعقيد غير قابل للاختزال ": هو أي نظام متكامل مكوَّن من عدة أجزاء مركبة، تعمل بتفاعل وتناغم تام مع بعضها البعض؛ لتقوم بوظيفة محددة، وعند إزالة أي جزء من أجزائه يتوقف فعليًّا عن العمل؛ ومن ثم لا يمكن للخلية أن تتطور تدريجيًّا، بل يجب أن تُخلَق مباشرةً على صورتها الحالية.





"ثُمَّ هَدَىٰ" كل مخلوق إلى ما خلقه له.

يميز القرآن الكريم بين خلق الشيء ومنحه الإحساس بالاتجاه. هذا الإحساس بالاتجاه بُعْدٌ غامض موجود في كل شيء يتحرك حولنا، يوجّهه نحو هدف مُعيَّن، ودور خاص به وحده، حدده له الخالق عز وجل.

البروتين المتحرك "كينيسين" (Kinesin) ينقل حمولة خلوية على طول سكك من الأنيبيبات الدقيقة (Microtubules) –يعمل بالضبط مثل ساعي البريد، يسلم الطرود داخل الخلية



﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

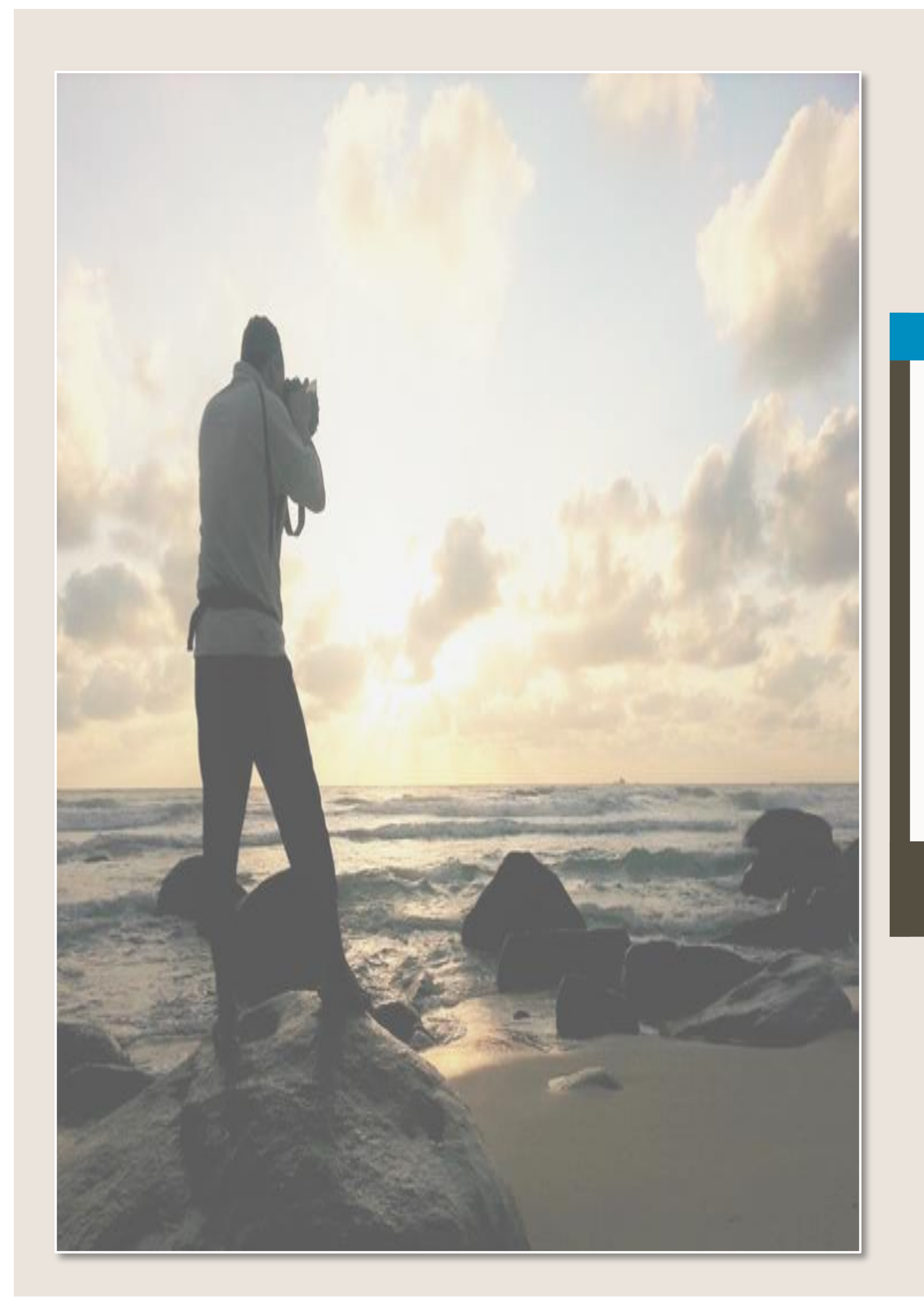
سورة الذاريات ٥١: ٢١

الدليل تجدونه في أنفسكم

- يتكوَّن جسم الإنسان من حوالي ١٠٠ تريليون خلية مقسمة إلى أكثر من ٢٠٠ نوع مختلف من الخلايا المتخصصة؛ مثل: خلايا الجلد، والعضلات، والعظام، والدم، والقلب، والمخ وغيرها من الخلايا.
- يبدأ كل إنسان كخلية أحادية، فريدة في صفاتها وتركيبها الجيني (فكل إنسان فريد في تكوينه ولا يتكرر)، تعرف علميًّا باسم الزايجوت (zygote) أو البويضة المخصبة، ثم تنقسم تلك الخلية الجنينية الأولى، وتواصل الانقسام إلى أن تصبح تريليونات من الخلايا المتخصصة تشكِّل في النهاية إنسانًا كاملًا.
- تنقسم وتضاعف الخلية الجنينية الأولى عدة مرات تصبح بعدها كتلة من الخلايا غير المتمايزة (غير المتخصصة). ومع نمو الجنين، تصبح متمايزة؛ أي إنها تصبح خلايا ذات أنواع متخصصة لتكوين أعضاء الجسم المختلفة والمسؤولة عن وظائف شديدة التنوع والتخصص. السؤال الذي يطرح نفسه: كيف يمكن للخلايا الجنينية أن تبدأ متماثلة وغير متمايزة، ثم يقرر بعضها أن يصبح خلايا دماغية، والبعض الآخر خلايا كبدية، أو خلايا جلدية، أو خلايا عصبية؟
- تحتوي جميع الخلايا الموجودة في جسم الإنسان على نفس المادة الوراثية (DNA) تمامًا مثل الخلية الأم (الخلية الأصلية التي انقسمت). السؤال هنا: كيف يمكن لعدد من الخلايا الجديدة المنقسمة، كل منها يحتوي على DNA متطابق، أن يتمايز إلى أنواع مختلفة من الخلايا المتخصصة، لتؤلف بالتالي الأنسجة والأجهزة والأعضاء المختلفة؟
- تحتوي كل خلية على نفس عدد الجينات (حوالي ٢٤،٠٠٠ جين). تقوم خلية الجلد بتشغيل الجينات التي تجعلها خلية جلدية، بينما تترك خلية العظام هذه الجينات معطلة. كيف تقوم الخلايا بتشغيل أو إيقاف تشغيل الجينات؟ والأهم من ذلك، كيف "تميز" الجينات التي يجب تشغيلها والجينات التي يجب تعطيلها؟ وكيف تحدد الخلايا نوع وكمية ومكان وزمان البروتينات المطلوب تصنيعها؟

هذا الفيض المذهل من الحقائق العلمية عن الخلية يقودنا لا محالة إلى طرح التساؤل التالي:

من الذي صمم الخلية؟ ومن الذي علمها ما يجب عليها بالضبط القيام به في كل خطوة؟



«ذرات متخبطة لا تعقل تآمرت فيما بينها لإيجاد ليس فقط الحياة، وليس فقط العقل، ولكن الفهم أيضًا ... هذا الكون لا يمكن أن يكون تفصيلًا تافهًا، ولا ناتجًا ثانويًّا لبعض القوات الطائشة التي تتحرك بدون هدف. لقد قُصِد لنا حقًّا أن نكون هنا». العالم الفيزيائي بول ديفيز (Paul Davies) في كتابه (عقل الإله The Mind of God).

دور العلم

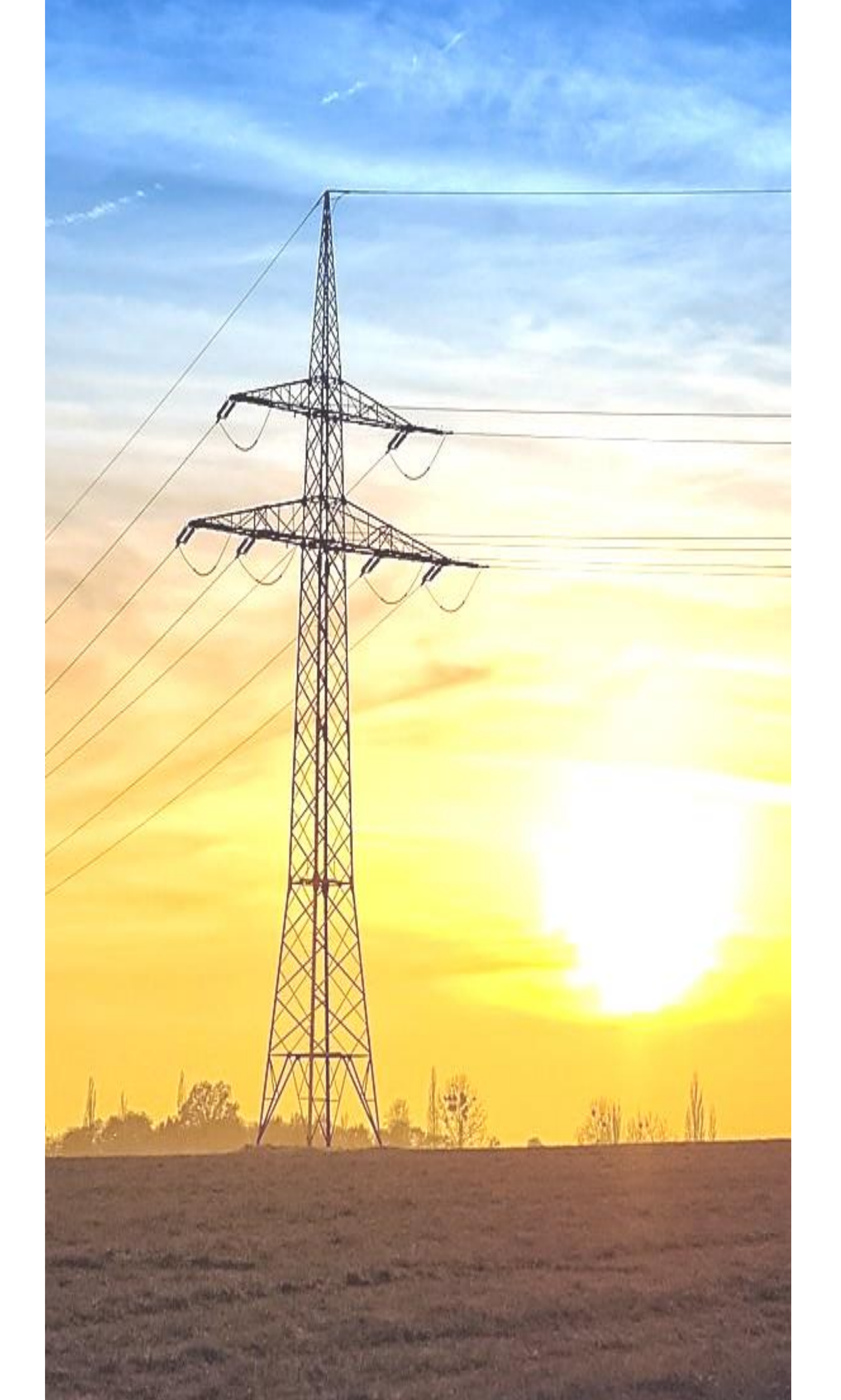


- يدور العلم، في الأساس، حول استكشاف وفهم العالم الطبيعي من حولنا عن طريق الملاحظة وإجراء التجارب. يوجد في هذا الكون حقائق متنوعة لا حصر لها، تقع في متناول الحواس الخمس المعروفة أو بعيدًا عنها. ومن خلال اكتساب العلم والمعرفة واستمرارية التعلم يستطيع البشر تنمية مداركهم، ومهاراتهم، وقدراتهم، والاستفادة من تلك المعارف والخبرات في الارتقاء بمعيشتهم وتيسير حياتهم.

- العلم ليس مجرد مجموعة من الحقائق الثابتة فحسب، ولكنه دفق متواصل ومتجدد ومتغير باستمرار. العلم مجال مفتوح دائمًا لنظريات وتفسيرات واكتشافات جديدة، تتبدل من وقت لآخر، أو يتم تصحيحها، أو دحضها بنظريات أخرى أكثر موثوقية وحداثة ودقة تحل محل القديمة، أو تعدلها، أو تكملها. الحقيقة في العلم ليست نهائية أبدًا.

- فقط لأن العلم بإمكانه أن يفسر العديد من المسائل غير المعروفة هذا لا يعني أنه يمكن أن يفسر كل شيء. هناك المسائل المتعلقة بالقيم، والأخلاق، والحقوق، والواجبات، والمعاني، والغايات كلها تقع خارج نطاق العلم.

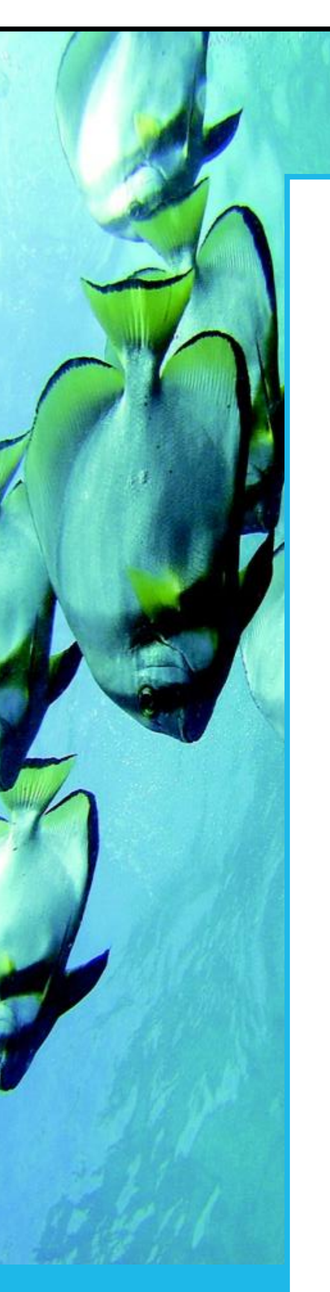
- الصواب والخطأ لا يأتي من الفيزياء، أو الكيمياء، أو البيولوجيا، أو الرياضيات. العلم لا يعلمنا أن نعامل جيراننا كما نحب أن نُعامَل، أو يرشدنا إلى كساء العُراة وإطعام الجائعين، أو لماذا من الخطأ أن نقتل، أو نسرق، أو نظلم، أو نُدلي بشهادة زور، أو نجرح مشاعر الآخرين؟ العلم صامت عن كل هذه المواضيع.



”

«أنا مندهش للغاية من أن الصورة التي يقدمها العلم عن العالم الواقعي من حولي ناقصة بشدة. إنه (أي العلم الطبيعي) يعطينا الكثير من المعلومات الحقيقة، ويضع كل خبراتنا وفق ترتيب متسق بشكل رائع، ولكنه صامت صمتًا مروعًا إزاء كل ما هو قريب فعلًا إلى قلوبنا، والذي يهمنا حقًّا. إنه (أي العلم الطبيعي) لا ينطق بكلمة عن الأحمر والأزرق، المر والحلو، الألم واللذة، إنه لا يعرف شيئًا عن الجميل والقبيح، عن الحسن والسيئ، عن الله والخلود».

الفيزيائي النمساوي إرفين شرودنجر (Erwin Schrödinger) الحائز على جائزة نوبل وأحد مؤسسي ميكانيكا الكم.



الدين والعلم - علاقة تكامل لا تصادم

١. الصراع بين العلم والدين أمر غير متصوَّر في الإسلام؛ فالدين مصدره الله عز وجل، وكذلك الكون بكل أجزائه وقوانينه وظواهره وتعقيداته؛ لذلك لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين الدين الحق والعلم الدقيق؛ لأن مصدرهما واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، وكلاهما عنصران مكملان لبعضهما البعض في مهمة واحدة؛ هي: شرح الحقيقة؛ حيث يقوم بذلك الدين من خلال الوحي الإلهي، والعلم من خلال البحث العلمي وجمع الدلائل والمعلومات.

٢. تتجلى هوية الإسلام بوصفه دين علم ومعرفة وإعمال للعقل من خلال أول كلمة قرآنية أنزلها الله تبارك وتعالى لهداية البشر: ﴿اقْرَأْ﴾ (العلق ٩٦: ١) الأمر الجازم الحازم بالقراءة والحث على تعلمها وتعليمها، حيث الزيادة في قوة الإيمان مع تنمية الفهم والمدارك هو ما يرفع الإنسان ويعلي شأنه. يقول القرآن على وجه التحديد: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.﴾ (المجادلة ٥٨: ١١)

٣. ليس في القرآن كله أمر بالدعاء بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا.﴾ (طه ٢٠: ١١٤) وهناك الكثير من الآيات المبثوثة في جميع أنحاء كتاب الله العزيز تحث البشر مرارًا وتكرارًا على النظر في الخلق والتدبر في شؤون الكون. فالعلم، وفقًا لجوهر الإسلام ورسالته، ليس مسألة تشجيع فحسب، بل هو واجب على كل فرد مسلم كما أخبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ". (رواه ابن ماجه).

٤. العلم والدين ينتميان إلى عالمين مختلفين تمامًا، يكمل بعضهما البعض، ولا يتصادمان؛ لعدم وجود تداخل بين المساحات التي يشغلها كلٌّ منهما. وكلاهما له نفس الأهمية في مجال العلم والمعرفة. البشر مُكوَّنون من جسد وروح؛ فهم كائنات جسدية وروحية معًا. العلم يتعامل مع الجانب المادي من عالمهم (الحقائق، والأرقام، والبيانات، والمعادلات)، بينما يتعامل الدين مع الجانب الروحي (المعتقدات، والأخلاق، والمبادئ، والقيم المعنوية، والمثل العليا، والمعاني السامية).

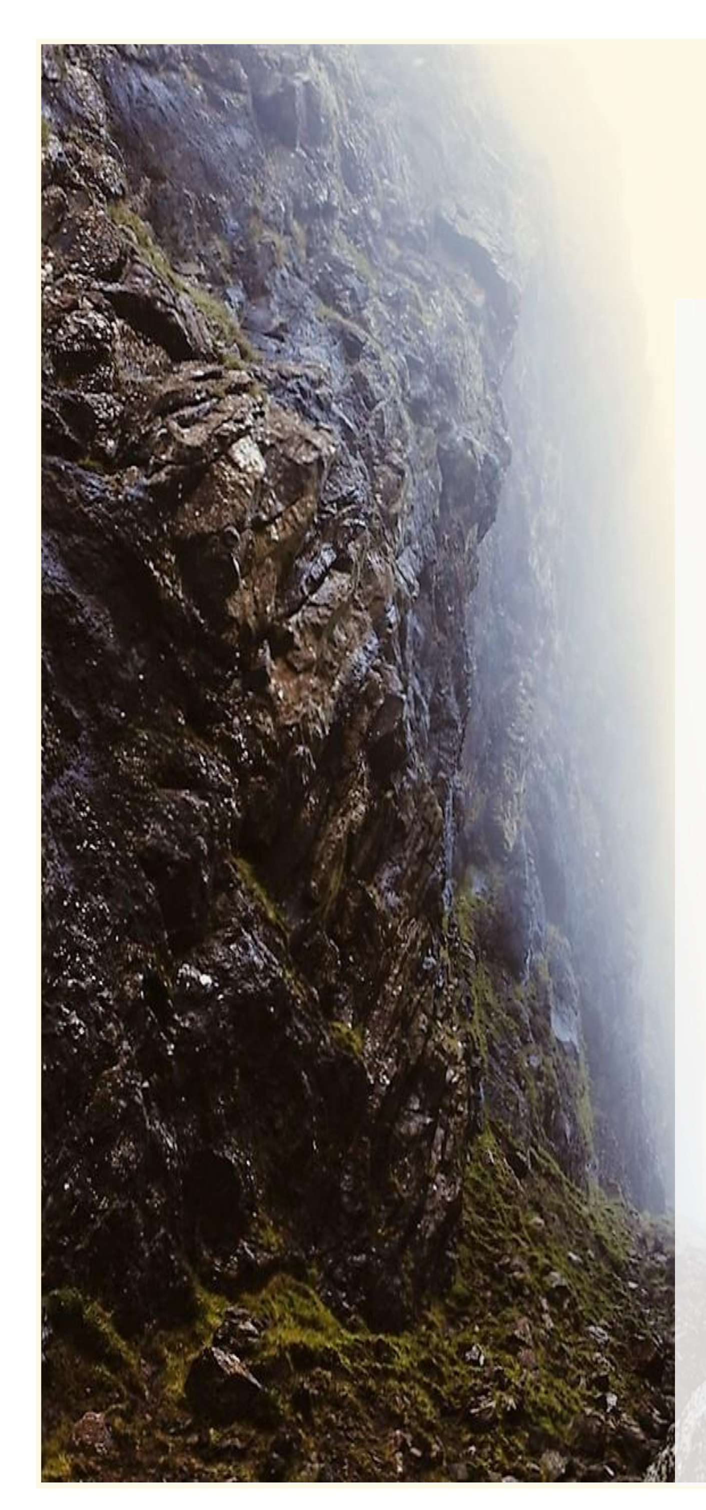


٥. كل من العلم والدين يعلمان البشر حقائق كثيرة عن أنفسهم وعن عالمهم الذي يعيشون فيه، وغالبًا ما يكون ذلك بطرق متكاملة ومتداخلة فيما بينهما. العلم يضيف إلى الإيمان، والإيمان يضيف إلى العلم، كما يجمع بينهما مصالح متبادلة ومساهمات هامة يقدمها كل منهما للآخر.

٦. في هذا الإطار، يُمثِّل كل اكتشاف علمي جديد خطوة إلى الأمام في المعارف الإنسانية، وخطوة أخرى إلى الأمام في إجلال وتقدير قدرة الخالق المدهشة. فكلما تعرَّفَ البشر على أسرار الكون وتكوين الجسد البشري، كلما ازداد شعورهم بالمهابة والرهبة من عظمة الله جل وعلا.



"العلم نفسه لا يتعارض مع فرضية وجود الله، بل يمنحنا نافذة على عالم ديناميكي (حركي) وخلَّاق، يزيد تقديرنا للإله بطرق لم يكن من الممكن تخيلها في العصور الماضية". كينيث ميلر (Kenneth Miller) – عالم الأحياء الخلوي والأحياء الجزيئية الأمريكي



موقف العلماء تجاه الدين

- على مر التاريخ وحتى منتصف القرن التاسع عشر، كان يُنظَر إلى العلم والدين على أنهما زملاء عمل في رحلة البحث الإنساني عن الفهم والمعرفة، حيث كان العلم بمثابة وسيلة تقود إلى إيمان أعمق وتقدير أعظم للخالق عز وجل.
- يقوم العلم على الاعتقاد بأن الكون عقلاني، ومنظم، ومفهوم، ومنطقي في جميع مستوياته منذ نشأته؛ فهو يعمل وفقًا لقوانين موحَّدة، يمكن التوصل إلى فهمها فهمًا صحيحًا عن طريق الملاحظة والاكتشاف. ويرجع السبب في هذا تحديدًا إلى أنه صُمِّم ونُظِّم على هذه الهيئة بواسطة خالق عليم حكيم. فوفق حسابات المنطق، إذا كانت الحقيقة في نهاية المطاف فوضوية وغير مفهومة، فإن الكون بالتالي سيكون غير مفهوم؛ مما يجعل العلم مستحيلًا.
- معظم علماء تلك الفترة كانوا يعتقدون بوجود خالق مدبر وراء هذا الخلق، منهم جاليليو (Galileo)، كوبرنيكوس (Copernicus)، نيوتن (Newton)، كيبلر (Kepler)، باستور (Pasteur)، وتقريبًا جميع الآباء المؤسسين للعلوم كانوا رجالًا مؤمنين، نسبوا اهتمامهم بالعلوم إلى إيمانهم بالله سبحانه.
- العمق والتعقيد اللذان تم بهما الصياغة الدقيقة للكون، من أكبر التفاصيل إلى أصغرها، وجَّهَ هؤلاء العلماء ليس فقط إلى الإيمان بوجود الله، بل إلى صفات هذا الإله. كما عبَّر عن هذا السير إسحاق نيوتن، مكتشف قانون الجاذبية العام (Newton's Universal Law of Gravitation) بقوله: "إن هذا النظام الجميل للشمس، والكواكب، والمذنَّبات يمكن له أن يصدر فقط عن خطة وسيادة كائن ذكي وقوي".
- لأن الله كامل في ذاته وصفاته، فيجب أن يتسم خلقه بالكمال أيضًا، ويعمل وفق قواعد موحَّدة ومتسقة؛ لذا فإن اليقين في وجود قوانين رياضية تحكم هذا العالم، بدلًا من الفوضى، بعث في هؤلاء العلماء الحافز القوي إلى اكتشاف تلك القوانين.

اليوم مقارنة بالماضي

- حدث في الغرب صدعٌ جذريٌّ في العلاقة بين العلم والدين بعد نشر تشارلز داروين (Charles Darwin)، مؤسس نظرية التطور، لكتابه "في أصل الأنواع عن طريق الانتقاء الطبيعي" (On the Origin of Species by Means of Natural Selection) عام ١٨٥٩، زعم فيه بأن جميع أشكال الحياة هي نتاج قوى طبيعية غير موجهة على الإطلاق – فقط عامل الزمن + عامل الصدفة + عملية أطلق عليها داروين " الانتخاب الطبيعي والطفرات العشوائية" (Natural Selection and Random Mutations)).

- وفقًا لتشارلز داروين، يفسر الانتقاء الطبيعي وجود تصميم بلا مصمم، ونظام دون عقل منظم ومدبر، حتى أصبح الانتقاء الطبيعي بديلًا عن الإله؛ استطاعت من خلاله قوى طبيعية عشوائية غير موجهة إنتاج كل هذا التنوع والتعقيد في أشكال الحياة بالصدفة الكاملة. وعلى هذا الأساس وبناء على هذه النظرية، تم استبعاد فكرة وجود مصمم ذكي لعمارة وهندسة الكون لكونها أمر غير ضروري أو مستحيل.

- أحدثت نظرية التطور لداروين تأثيرًا عميقًا، وغيرت بشكل جذري ليس فقط العلم، بل نظرة الكثير من الشعوب الغربية إلى أنفسهم، وعالمهم الذي يعيشون فيه ودورهم فيه.

- في العقود التي أعقبت نشر كتاب تشارلز داروين (أصل الأنواع)، تم إقصاء الله تقريبًا من المقالات والكتب المدرسية العلمية، وأصبح نطاق العلوم مقصورًا على البحث عن تفسيرات طبيعية لجميع الظواهر الكونية. وبهذا النهج، أصبح الواقع مقصورًا على المادة وحدها، وحلت الطبيعة محل الإله، كما حلت قوانين الطبيعة محل إرادة الإله، وحلت آليات التطور محل عملية الخلق والإبداع باعتبار فرضية التطور التفسير الأكثر قبولا للأصل البشري. وهذا بالتالي نفى أي منزلة خاصة للإنسان بين سائر المخلوقات، أو تكاليف إلهية من أوامر ونواهٍ وحلال وحرام ائتمن الانسان على الالتزام بها (يترتب على الوفاء بها الثواب، وعلى الإخلال بها العقاب).

- اليوم يرفض العديد من العلماء الغربيين الاعتراف بالله خالقًا، وينسبون الإبداع الرائع والمعقَّد الذي يسود الكون إلى القوانين الفيزيائية فقط، مثل قانون الجاذبية الأرضية. فقد صرح ستيفن هوكينج (Stephen Hawking)، أحد العلماء البارزين في مجال الفيزياء النظرية وعلم الكون، أنه "طالما يوجد قانون مثل الجاذبية، فالكون يمكنه وسيظل قادرًا على خلق نفسه من العدم. الخلق التلقائي هو السبب وراء وجود شيء ما بدلًا من عدم وجود أي شيء، ووجود الكون ووجودنا نحن". وأضاف يقول: "ليست هناك ضرورة لوجود خالق لإطلاق الشرارة وخلق الكون".

الانسجام بين القرآن والعلم

"لدينا هذا الكوكب (الأرض) الواقع على بعد المسافة الصحيحة من الشمس، بحيث يتلقى ما يكفي من الضوء والحرارة، ولكن ليس كثيرًا؛ بحيث تكون مواسمه طويلة بما يكفي، لكن ليست طويلة جدًّا. لدينا أيضًا كوكب يدور بالسرعة المناسبة، بحيث يمتد طول النهار والليل لفترات كافية، ولكن ليست طويلة جدًّا. هذا التسلسل للظروف المواتية غير عادي. يمكن للمرء أن يعزوه إلى مجرد المصادفة، أو إلى تفسير أكثر معقولية، وهو التصميم". هربرت مكاي (Herbert McKay)، عالم الأرقام



﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

(يس ٣٦: ٣٨)

اتباع الدليل حيثما يقود
الاكتشافات العلمية الحديثة تدعم بشدة القناعة بوجود إله مصمم لهذا الكون

الدليل على التصميم يمتد بعمق في جميع أنحاء الكون، من الفيزياء إلى علم الفلك والكونيات إلى الحمض النووي والكيمياء الحيوية وغيرها من المجالات العلمية، على نحو جليٍّ ومؤثِّر إلى الحد الذي جعل الفيلسوف الإنجليزي أنتوني فلو (Antony Flew)، وهو المفكر الملحد الأكثر تأثيرًا في القرن العشرين، يتخلى عن إلحاده.

أعلن فلو، أشد المؤيدين للإلحاد لأكثر من خمسين عامًا، ضرورة وجود خالق لتفسير الكون وأشكال الحياة المعقَّدة والمنظَّمة فيه. وقد روى قصة تحوُّله من الإلحاد إلى الإيمان بوجود خالق في كتابه "هناك إله كيف غيَّر أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟" (There is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind).

كانت مقولة سقراط الشهيرة **"اتبع الدليل حيث يقودك"** هي الشعار الذي عاش به الفيلسوف البريطاني طوال حياته، وباتباع الدليل المبني على التحليل المنطقي لأحدث المستجدات والاكتشافات العلمية، توصَّل "فلو" إلى النتيجة التالية:

أنا الآن أُؤمن بأن الكون قد جاء إلى الوجود بواسطة ذكاء لا محدود. أنا أُؤمن بأن قوانين الكون المعقدة تعكس ما أسماه العلماء (عقل الإله). أنا أُؤمن بأن الحياة واستمراريتها بالتكاثر أساسُها مصدر إلهي.

لماذا أُؤمن بذلك، مع الأخذ بالاعتبار أني أسهبتُ في شرح الإلحاد والدفاع عنه لأكثر من نصف قرن؟ الجواب باختصار هو أن هذه هي صورة العالم كما أراها (الآن)، والتي انبثقت من العلم الحديث؛ فالعلم سلط الضوء على ثلاثة أبعاد للطبيعة تشير إلى الإله:

الأول: هو حقيقة أن الطبيعة تخضع لقوانين.

الثاني: هو بُعد الحياة؛ نشوء كائنات ذكية التنظيم تقودها غايات، نتجت عن المادة.

الثالث: هو وجود الطبيعة في حد ذاته.

هذه الحجج الرئيسية الثلاث هي التي أجبرت "فلو" على الاعتراف بحتمية وجود خالق ذكي لهذا الكون: (١) أن الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة مترابطة. (٢) أن الحياة بما تحويه من كائنات ذكية، موجهة بغايات وأغراض معيَّنة، مستحيل أن تنبثق من المادة الميتة. (٣) أن الكون متوافق بشكل دقيق حتى الأجزاء من الثانية، ومهيأ ومُعَدٌّ بإحكام لقيام لحياة.

√ "أظهرت مادة الحمض النووي (DNA)، من خلال حجم التعقيد الذي لا يُصدَّق في الترتيب المطلوب لإنتاج الحياة، أن الذكاء حتمًا قد تدخَّل لكي يجعل تلك العناصر الهائلة التنوع تعمل مع بعضها البعض". – أنتوني فلو

√ "مع كل عام يمر، وكلما اكتشف المزيد عن الثراء والذكاء المتأصل في الحياة، يقل احتمال تسبب حساء كيميائي، بطريقة سحرية، في إنشاء الشفرة الجينية (الوراثية)". – أنتوني فلو

√ "لقد اقتنعت أنه ببساطة من المستحيل أن تكون مادة الحياة الأولى (DNA) قد خرجت من مادة ميتة (غير حية) ثم تطورت إلى مخلوق معقد للغاية (وهو الإنسان)". – أنتوني فلو



- ما هي الحياة؟ ما هو الوعي؟ ما هو الضمير*؟ أو السؤال الأكثر تحديدًا، ما الذي يجعل شيئًا ما حيًّا، واعيًا، ومدركًا ويملك ضميرًا؟ إلى الآن العلم لم يتوصل إلى الإجابة على هذه التساؤلات.

- الحياة معجزة ولغز في الوقت ذاته، ولا يستطيع العلم مع كل إنجازاته أن يخترق أبعد من الخصائص والظواهر الواضحة الدالة على الحياة.

- الحياة ليست كيانًا ماديًّا يمكن لمسه أو ملاحظته تحت المجهر، بل هي غير مرئية. كل ما يمكن رؤيته منها هو علامتها الخارجية ليس أكثر؛ فمجال العلوم يقتصر على الحقائق الطبيعية والفيزيائية، والعلم قادر فقط على تمييز وجود الحياة أو غيابها، ويمكنه فقط شرح العمليات البيولوجية (الحيوية) المتعلقة بالحياة، أو سرد خصائصها، أو وصف ظواهرها وآلياتها، ولكنه لا يستطيع تعريف الحياة أو شرح سبب بقاء شيء ما على قيد الحياة، أو كيفية منح الحياة للكائن الحي.

- العقل البشري هو العضو الأكثر تعقيدًا وتميزًا على كوكب الأرض. يزن دماغ الإنسان ١,٥ كجم فقط ويحتوي على حوالي ٨٦ مليار خلية عصبية. الإدراك، والحركة، والسلوك، والصفات الشخصية، والأفكار، والعواطف، والقرارات، ووظائف الجسم الحيوية كلها تنشأ في الدماغ. كيف يحقق الدماغ هذا؟ بعبارة أخرى: كيف يجعل الدماغ من الشخص إنسانًا؟ كيف يحدد من هو كإنسان؟ هل تلك الأنشطة التي تشكل الحياة تصدر فقط عن العمليات الكيميائية والبيولوجية وإطلاق الخلايا العصبية في جميع مناطق الدماغ؟ هل هذا تفسير كافٍ؟

- وفقًا للقرآن الكريم، خالق الحياة وواهبها وممدها بأسباب البقاء هو الله عز وجل. أما عن حقيقة طاقة الحياة أو جوهر الحياة – ألا وهي الروح التي يحيا بها الجسد – فهي تقع بالكامل خارج نطاق المعرفة الإنسانية. هذا أمر يستحيل معرفته؛ شاء الله أن يكون كذلك، وأعلن أنه سيظل كذلك، سرًّا من أسراره التي استأثر سبحانه بعلمه، ولم يجعل للإنسان سبيلًا إلى معرفته، كما هو معلن بكل وضوح في القرآن الكريم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.﴾ (الإسراء ١٧: ٨٥)

√ الضمير هو ذلك الإحساس الأخلاقي الداخلي بكل ما هو صحيح أو خاطئ استودعه الله بداخل كل إنسان؛ ليميز الصواب من الخطأ والخير من الشر، ويدفعه نحو القيام بالتصرف الصحيح.



﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس ٣٦: ٨٢)

الله سبحانه هو المتفرد بالخلق الحقيقي؛ وهو: الإيجاد من العدم، فإذا أراد إيجاد شيء؛ فإنما يقول له: "كُن"؛ فيكون ويوجد في الحال، على وفق ما أراد، دون احتياج إلى وجود أسباب.

يذكر القرآن الكريم ستة أسماء وصفات أساسية لله تعالى بوصفه خالقًا، كلٌّ منها يعكس جانبًا مختلفًا ويعطي نظرة أعمق عن طلاقة القدرة الإلهية على الخلق وعملية الخلق المركبة؛ فهي تؤكد بوضوح قاطع لا لبس فيه ولا غموض أن كل تفاصيل عملية الخلق هي من تدبير وتنفيذ الله تعالى مباشرةً، بشكل لا يترك مجالًا للصدفة أو تدخلًا أو معونة من أي أحد أو أي شيء. هذه الأسماء والصفات الإلهية الست هي:

١. **المبدئ:** هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداءً، من غير أصل أو آلة أو مادة سابقة الوجود، فقط بإرادته إيجاد الشيء، فيقول له "كن"؛ فيكون.

٢. **الخالق:** الذي خلق كل شيء في هذا الوجود مُقدَّرًا؛ أي: مُحكمًا مضبوطًا بمقاييس متقنة، على أحسن ما يتناسب مع كل مخلوق وما خُلِقَ لأجله. قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا.﴾ (الفرقان ٢٥: ٢)

٣. **البارئ:** هو المبدع، المخترع، المنشئ للأشياء من العدم إلى الوجود على غير مثال أو نموذج سابق.

٤. **المصوِّر:** هو الذي صوَّر جميع الموجودات والمخلوقات، ورتَّبها؛ فأعطى لكل نوع منها شكلًا وتركيبًا خاصًّا، وهيئة منفردة تميزه عن غيره، وتناسب وظيفته والغرض الذي خُلِق من أجله.

٥. **الفاطر:** الخالق المُبدع المخترع على غير مثال سابق، ولا نموذج يُحتذى، الذي أوجد الأشياء من العدم وأبدعها على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال.

٦. **البديع:** هو الذي أوجد الأشياء من لا شيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وهو الذي خلق كل خلقه بلا تماثل، بحيث لا يشبه مخلوقٌ مخلوقًا آخر تشابهًا تامًّا، وهذا دليل على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى.


﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ.﴾
السجدة ٣٢: ٧

إلى أي جيل من البشر يُشَكُّ في وجود الله تعالى

الله تعالى يتحدى البشرية مجتمعةً على خلق ذبابة واحدة، وهي أضعف مخلوقاته، أو أبعد من ذلك، استردادهم شيئًا سلبه الذباب منهم

الذبابة في نظر البشر، كائن ضعيف وحقير، ولكن من وجهة نظر الخالق، هي واحدة من إبداعاته الفذة التي تشكل علامة من علاماته ودلالة من دلالاته تضع تحديًا خالدًا للبشر على مر العصور، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ.﴾

(الحج ٢٢: ٧٣)

١. رؤية شاملة ٣٦٠ درجة: "الذبابة هي أعجوبة في الخلق؛ هذه الحشرة ترفرف أجنحتها ٥٠٠ مرة في الثانية الواحدة؛ لذلك فإن قدرتها على الطيران عظيمة. والمثير للدهشة أكثر في هذه الحشرة هي عيونها؛ فكلٌّ منها يحتوي على آلاف العدسات بالغة التعقيد، فالذبابة تمتلك عيونًا مركَّبة على جانبي رأسها، كلٌّ منها مقسَّم إلى ٤٠٠٠ جزء، لكل جزءٍ عدسةٌ تنقل الصورة من زاوية مختلفة قليلًا، فعندما تنظر الذبابة إلى زهرة، تظهر الصورة الكاملة لها بشكل منفرد في كلٍّ من عدساتها البالغ عددها ٨٠٠٠ عدسة. وعندما تصل هذه الصور (المنفردة) إلى الدماغ، فإنها تتجمع مع بعضها البعض مثل لعبة تركيب الصور المقطعة. نتيجة لذلك، تظهر صورة ذات أهمية كبيرة للذباب". (كاثي ولارد (Kathy Wollard)، كيف أتى؟ كوكب الأرض).

٢. حذاء يتحدى الجاذبية: تملك الذبابة أرجلًا مزوَّدة بوسائد ناعمة ولزجة على كل قدم، تُسمَّى بالإنجليزية Pulvilli، مغطاةً بكثافة بشعيرات صغيرة. هذه الوسائد تمكِّن الذبابة ليس فقط من تعليق نفسها رأسًا على عقب، بل أيضًا من المشي بسهولة على الأسطح الملساء أو المستقيمة في وضع مقلوب. كل قدم مزوَّد كذلك بزوج من المخالب الكبيرة المضادة (للالتصاق) تساعدها على تحرير قدمها (عند الطيران).

٣. فيراري عالم الحشرات: بالنسبة للعلماء فإن "ذبابة المنازل (Housefly) هي فيراري عالم الحشرات"؛ لقدرتها على تغيير مسارها في أقل من جزء من المائة من الثانية؛ أي أسرع من غمضة العين بـ ٥٠ مرة.

٤. أسرع استجابة بصرية: الذبابة تمتلك أسرع استجابات بصرية في مملكة الحيوان كلها، ويمكنها تتبع الحركات أسرع من عين الإنسان بخمسة أضعاف؛ مما يجعل ضربها مهمة شبه مستحيلة.

٥. أي شيء يخطفه الذباب يتم تحويله، بعد لحظات، إلى شيء آخر: يتغذى الذباب على السوائل فقط، لكنه يستطيع تحويل الأطعمة الصلبة إلى مادة سائلة عن طريق البصق أو التقيؤ عليها؛ حيث تعمل الأحماض الموجودة في القيء على إذابة الطعام، حتى تتمكن الذبابة من امتصاصه. حتى أمهر العلماء وأكثرهم خبرة إذا عملوا معًا داخل أحدث المختبرات، لا يمكنهم إعادة المادة التي أذابتها الذبابة إلى حالتها الأصلية.

الذباب يواصل إثارة الدهشة

"إن عقل الذبابة يقوم بحسابات شديدة التعقيد في وقت قصير جدًّا؛ لتحديد أين يكمن الخطر، وبالضبط كيف تتخذ أسلوب الطيران مع الدوران المائل لأفضل هروب، أو القيام بحركة مختلفة إذا كان التهديد يأتي من أحد الجوانب، أو مباشرة من الأمام أو من الخلف".

"كيف يمكن لمثل هذا الدماغ الصغير توليد سلوكيات عديدة مدهشة؟ ذبابة حجم دماغها في حجم ذرة الملح تمتلك ذخيرة سلوكية تقريبًا في مثل تعقيد حيوان أكبر منها بكثير مثل الفأر. من منظور هندسي، هذا إشكال مُثيرٌ للاهتمام للغاية". مايكل ديكنسون (Michael Dickinson) أستاذ علم الأحياء بجامعة واشنطن.

"خلايا عصبية تزن واحدًا من الألف من الجرام معبأة في مساحة حجمها ملليمتر مكعب: هذا يلخص - إلى حد كبير - دماغ الذبابة، هذا على أي حال ما يظهر لنا على السطح. ومع ذلك الصغر، فهو عضو رائع. ففي أجزاء من الثانية، يترجم المعلومات البصرية إلى أوامر توجيهية؛ مما يُمكِّن الذبابة من أداء ألعاب بهلوانية جوية". ألكسندر بورست (Alexander Borst)، أخصائي علم الأعصاب.

"هذا الذباب (أي ذباب الفاكهة) عادةً ما يرفرف بجناحيه نحو ٢٠٠ مرة في الثانية الواحدة، وفي كل ضربة من أي جناح، يمكنه إعادة توجيه جسمه لتوليد قوة بعيدًا عن الإشارة المنبه للخطر؛ ومن ثم يواصل التسارع". فلوريان موجيريس (Florian Muijres)

ذبابة الفاكهة تتفوق على الطائرات المقاتلة

أظهرت البحوث قدرة الذباب على تغيير مساره في الجو في أقل من ١/١٠٠ من الثانية، أي أسرع بخمسين مرة من غمضة العين

"الحشرات متنوعة تنوعًا مذهلًا فيما يتعلق بمورفولوجيا (شكل) الطيران وسلوكياته، والتي بدورها تمثل تحديًا حقيقيًّا للباحثين الذين يريدون فهم كيفية طيران الحشرات. وعلى وجه الخصوص، مناورات الطيران المثيرة للإعجاب التي يقوم بها الذباب؛ مثل الذباب الأزرق (blowflies)، وذباب المنزل (fruit flies)، والتي ألهمت العلماء لسنوات عديدة. فقدرة الذبابة على التسارع، والقيام بانعطافات ضيقة، والتفافات، وانحدارات؛ مما يسمح لهذا المخلوق بالهبوط على السقف بالمقلوب، لا تُضاهى مع أي كائن حي آخر، فضلًا عن أي طائرة من صنع الإنسان. الجميع يعلم مدى صعوبة قتل الذبابة باليد العارية؛ فالذبابة تمتلك قدرة رائعة على الإقلاع السريع والتحرك بدقة بعيدًا عن أي تهديد يقترب منها". كيف تعمل عضلات القيادة في الحشرات، أندرس هيدنستروم (Anders Hedenstrom)، عالم الأحياء بجامعة لوند.



﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ.﴾

(الزمر ٣٩: ٢١)

الأرض وقد بُعثت فيها الحياة بعد موتها

الموت علامة ودلالة مثله مثل الحياة



نقطة الإدراك الحتمية ... الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها

يروى أن أعرابيًا كان يسير على جمل له، فخَرَّ الجملُ ميتًا!

فنزل الأعرابي عنه وجعل يطوف به ويتفكر فيه! ويقول: مالك لا تقوم؟! مالك لا تنبعث؟ !

هذه أعضاؤك كاملة! وجوارحك سالمة!

ما شأنك؟! ما الذي كان يحملك؟! ما الذي كان يبعثك؟!

ما الذي صرعك؟! ما الذي عن الحركة منعك؟!

ثم تركه و انصرف متفكرًا في شأنه، متعجبًا من أمره.


السبب الذي من أجله خُلق الإنسان
وجهات النظر المختلفة لكلٍّ من الإسلام والإلحاد

الحياة ليس لها أصل هادف

- يرى الإلحاد أن الحياة مجرد حادثة (غير مقصودة وغير مخطط لها)؛ الكون نشأ من لا شيء بشكل تلقائي، دون تدبير، أو تصميم، أو إرادة واعية ... وبدأت الحياة بطريقة ما بسبب اختلاط غير مقصود بين بعض المواد الكيميائية.

- يؤمن الإلحاد بأن الحياة، في حد ذاتها، ليس لها غاية عظمى أو معنى هادف أو قيمة جوهرية، وستنتهي في النهاية. يجب الاستمتاع بها في بعض الأحيان، وتحملها في أحيانٍ أخرى، وبعد ذلك ستتلاشى تمامًا.

- مبدأ التطور، الذي أسسه ودعمه الإلحاد، ينظر إلى البشر على أنهم مجرد كتلة عشوائية من الجزيئات والتفاعلات الكيميائية شكلتها قوى الطبيعة على مدى عصور لا حصر لها من التطور التدريجي غير الموجَّه وغير الذكي للكائنات.

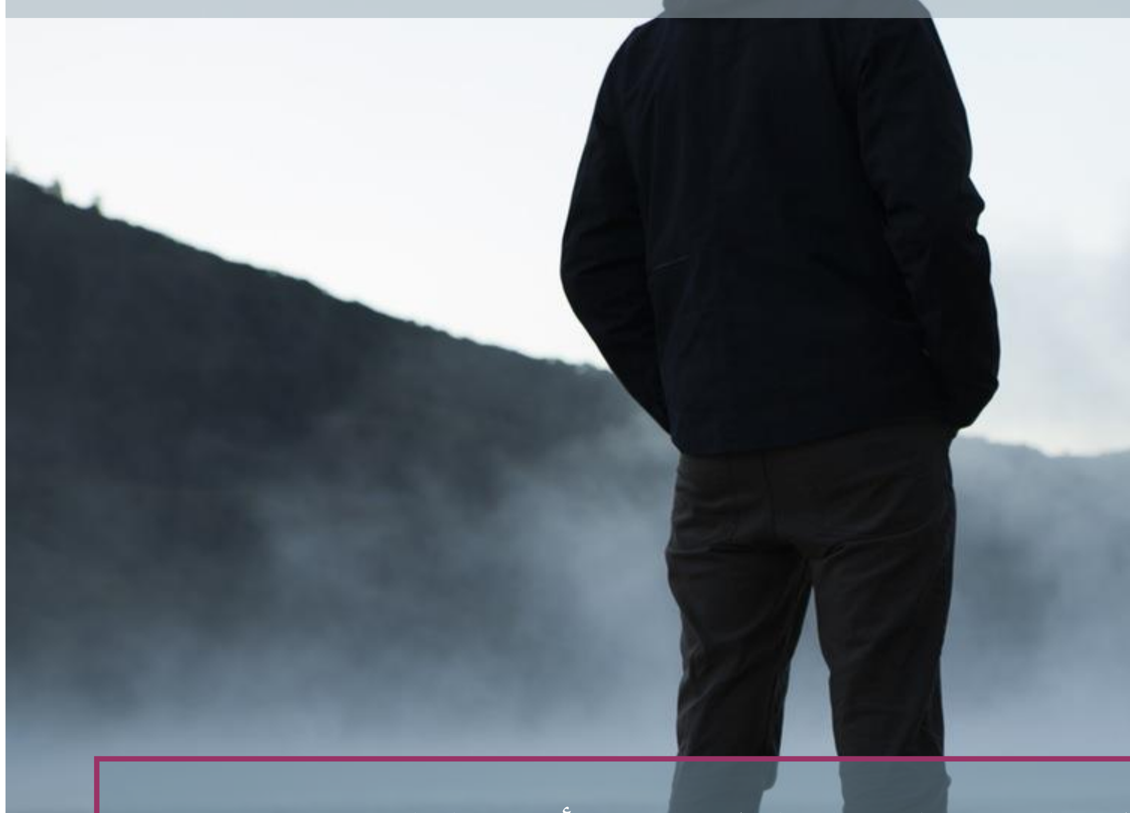
- يزعم التطور أن البشر، كباقي الكائنات الحية، تطوروا على كوكب الأرض بالصدفة من الرئيسيات المنقرضة (Primates، الثدييات العليا: مثل الشمبانزي والغوريلا). تقول النظرية أن البشر والقردة العليا ينحدرون من سلف مشترك شبيه بالقردة، تطوَّر عبر ملايين السنين إلى بشر في اتجاه، والقرود الحالية في الاتجاه الآخر.

- يؤمن الإلحاد بأن البشر، مثلهم مثل باقي الكائنات التي أتت بالصدفة دون أن يكون لها صانع، موجودون بلا سبب أو هدف على الإطلاق، سوى البقاء والتكاثر. في كتابه الجين الأناني (The Selfish Gene)، الكاتب وعالم الأحياء التطوري ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins) أعلنها صراحة: "إنك (أيها الإنسان) موجود من أجل لا شيء. أنت هنا لنشر جيناتك الأنانية. ليس هناك هدف أعلى للحياة".

- يعتقد الإلحاد أنه مثلما يولد الإنسان بلا هدف أو جدوى، فإن حياته بالمثل ستكون بلا هدف وبلا جدوى؛ وموته أيضًا بلا هدف أو جدوى ... كما عبر جون لينون (John Lennon) بكلماته الشعرية: "إنه رجل اللا مكان، يجلس في أرض اللا مكان، يضع خطط اللا مكان...ليس لأجل أحد".

- يعتقد الإلحاد أن البشر، وجميع الكائنات الحية الأخرى، يمرون بمراحل الطفولة والشباب والنضج والكهولة والشيخوخة من دون غاية محددة أو هدف مرسوم، ثم تنتهي حياتهم بالموت ولا شيء بعده. مع ذلك، دون إعطاء بعض المعنى للحياة، هذه النظرة الإلحادية تجعل الحياة لا تُطاق ولا تستحق العيش أو العناء؛ لذا، إزاء عالم لا هدف منه ولا معنى له، الأمر متروك لكل إنسان أن يخترع المعنى والهدف الخاص به حسب تفضيلاته ورغباته. والذي في النهاية سيواجه نفس المصير؛ أيًا كان هذا الهدف أو المعنى الذي يضعه الإنسان في حياته؛ وهو أن يتلاشى في فراغ كون لا طائل منه، لا يتعاطف مع الإنسان ولا يكترث به.

تفقد الحياة كل معناها ووجهتها عند إلغاء الله عزوجل منها، فهو سبحانه المصدر الوحيد لإعطاء الحياة سببًا ومعنى



طعم الحياة بدون الإله

إنه رجل اللا مكان

يجلس في أرض اللا مكان

يضع خطط اللا مكان ...ليس لأجل أحد

جون لينون - رجل بلا مكان (Nowhere Man)

> إن حياة تنتهي بالموت، ولا بقاء بعدها، هي حياة لا تستحق أن نحياها
>
> د. مصطفى محمود

الحياة في نظر المفكرين الأكثر شهرة في العالم

- "الإنسان هو نتاج أسباب لم تكن بصيرة بالغايات التي تحققها؛ لأن أصله ونموه وآماله ومخاوفه والأشياء التي يحبها ومعتقداته ليست إلا نتاج اجتماع عشوائي للذرات". الفيلسوف البريطاني برتراند راسل (Bertrand Russell)
- "الإنسان ما هو إلا نتاج عملية طبيعية غير هادفة لم تضعه في الحسبان؛ فلم يكن مخططًا له، هو حالة من المادة، وشكل من أشكال الحياة، ونوع من الحيوانات، وأحد فصائل الرئيسيات (الثدييات العليا)، يشبه من قريب أو من بعيد كل ما هو حي، وبالطبع كل ما هو مادي". عالم الحفريات الأمريكي جورج جايلورد سيمبسون (George Gaylord Simpson)
- "لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئًا ما لم يدرك أولًا أنه يجب عليه أن لا يعوِّل على أحدٍ إلا على نفسه؛ إنه وحده، مهجور على الأرض في محيطه اللامتناهي بالمسؤوليات، دون مساعدة، دون أي هدف آخر غير الذي يضعه لنفسه، وبلا أي مصير آخر غير الذي يضعه لنفسه على هذه الأرض". الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر (Jean-Paul Sartre)
- "يجب على الإنسان أن يستيقظ أخيرًا من حلمه الألفي، وأن يكتشف عزلته التامة، وانفراده المتأصل. يجب عليه أن يدرك أنه، مثله مثل الغجر، يعيش على حواف عالم غريب: عالم أصم لموسيقاه، لا يبالي بآماله، كما لا يبالي بمعاناته وجرائمه". عالم الأحياء الجزيئي جاك مونو (Jacques Monod)
- "الإنسان سينزل إلى الحفرة، وكل أفكاره ستفنى". "وجوده في حد ذاته حادث (غير مقصود)، وقصته عبارة عن حلقة قصيرة وعابرة في حياة أحد أكثر الكواكب وضاعة". رجل الدولة والفيلسوف البريطاني آرثر بلفور (Lord Arthur Balfour)
- "ليس هناك، في الحقيقة، تصميم أو غاية أو شر أو خير، لا شيء سوى لا مبالاة عمياء عديمة الرحمة ... نحن مجرد آلات لنشر المادة الوراثية لـDNA ... إنه السبب الوحيد لوجود كل كائن حي". عالم الأحياء التطوري ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins)



"الإنسان المعاصر هو ذلك اليتيم الكوني؛ لأنه قتل الإله، وبذلك اختزل نفسه في مجرد حادث من حوادث الطبيعة. فعندما يسأل: لماذا؟ تضيع صرخته في صمت أعماق الفضاء. وعندما يموت، يموت دون أمل. وهكذا، حين قتل الإنسان المعاصر الإله، قتل نفسه أيضًا". الفيلسوف اللاهوتي الأمريكي، وليام لين كرايج (William L. Craig)

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

(المؤمنون ٢٣: ١١٥)

الغاية الكبرى: سبب الوجود

وفقًا للطبيب النفسي الوجودي النمساوي فيكتور فرانكل (Victor Frankl)، فإن "إرادة المعنى (the will to meaning)" هي الدافع الأساسي لحياة الإنسان.

- في كل إنسان رغبة فطرية لإيجاد المعنى والهدف الأعظم للوجود. هذه الرغبة لا يمكن الهرب منها؛ لأنها راسخة في جذور الطبيعة البشرية، ففي أعماق نفوس البشر رغبة عميقة في أن يكون لحياتهم معنى أكبر من مجرد الوجود المادي.
- أهداف الحياة على كثرتها وتنوعها على امتداد رحلة العمر هي في النهاية مؤقتة ومتغيرة وفردية؛ تختلف من شخص لآخر وتتغير وفقًا لمراحل الحياة والظروف التي يمر بها الإنسان؛ ففي بعض الأحيان يكون الهدف هو المهنة، وأحيانًا الثروة، وأحيانًا العلاقات الاجتماعية. لكن أيًّا من هذه الأشياء وحدها لا يشكل هدفًا أصليًّا، أو دائمًا، أو مُرْضِيًا في حد ذاته. فبدون دافع حقيقي للوجود يصبح السعي لتحقيق هذه الأهداف، أو غيرها، عديم المعنى.
- تفقد الأهداف الشخصية أهميتها وتصبح عبثية في كنف عالم عشوائي بدون أصل واضح وغاية عظمى؛ لتصبح مجرد حركة بدون وجهة، وأحداثًا بدون سبب، وجهدًا بدون غاية سامية محددة تلوح في الأفق.
- العدم الجاثم أمام الإنسان عند طرفي الحياة - الولادة والموت - سيؤدي حتمًا إلى تحويل أي محاولات يقوم بها أثناء الرحلة بينهما إلى صراع عديم الجدوى لإيجاد معنى وغاية في الفراغ والعدم.
- استمداد قوة الإرادة والطاقة اللازمة للاستمرار في السعي وتحقيق الأهداف، ومواجهة تقلبات الحياة ومخاوفها، يمكن أن يتحقق فقط في ظل غاية دائمة وشاملة ومنطقية؛ تكون هي الموجهة والراعية لكافة أنشطة وأهداف الحياة المختلفة.
- يخبر الله تعالى في كتابه العزيز أنه ما خلق هذا الوجود عبثًا ولا لعبًا من غير فائدة، ولا ثواب ولا عقاب، بل خلق الكون على الوجه الأكمل، حسب نظام وقانون يسير به في اتجاه معين نحو غاية محددة؛ للدلالة على قدرة الخالق؛ ويؤكد في أكثر من موضع على قدسية الحياة وجدية هدفها وجدية دور الإنسان فيها: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.﴾ (الدخان ٤٤: ٣٨-٣٩) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.﴾ (ص ٣٨: ٢٧) ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.﴾ (الجاثية ٤٥: ٢٢)

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾

(القيامة ٧٥: ٣٦)

سدى: أي مهملًا لا يُكلَّف ولا يجازى

مخلوقات هادفة خُلِقت لسبب

- الهدف من أي شيء مصمم هو خدمة غرض ما؛ العجز عن معرفة أو فهم الغرض من الشيء سيؤدي حتمًا إلى إساءة استخدامه.
- لا يمكن للشيء المخلوق معرفة الغاية من خلقه بمفرده، بعيدًا عن خالقه. تمامًا مثل الفخاري (صانع الفخار) وإناء الفخار الذي صنعه؛ فالفخاري يمسك الطين ويشكله بيده مثل ما يريد، حسب غرض محدد يخدم فكرة معينة في ذهنه، يجهلها ببساطة كلٌّ من الإناء والحاضرين المشاهدين له. أي قدرٍ من فحص الشيء وتأمله بشكل منفرد ومستقل عن الصانع لن يجدي ولن يقدم إجابة كاملة عن سبب صنعه. وبالمثل، لا يمكن للبشر أن يتوقعوا فهم مقاصد الله في الخلق بمجرد النظر عبر المقاريب (التلسكوبات)، أو المجاهر (الميكروسكوبات)، أو غيرها من الأدوات العلمية.
- لمعرفة الغرض من منتج معين، يجب على المستخدمين سؤال مُصنّعيه مباشرةً وعلى وجه الخصوص؛ فهم الجهة الأكثر دراية وتأهيلًا للحديث عن منتجهم. المنتج نفسه لا يستطيع إخبارهم. الأمر هو ذاته فيما يخص البشر وخالقهم عز وجل. لا يمكن للبشر معرفة القصد من حياتهم عن طريق سؤال أنفسهم أو الآخرين: "لماذا نحن هنا؟" أو "ما معنى الحياة؟" فلا سبيل للبشر إلى معرفة تلك المسائل إلا من خالقهم وحده.
- لضمان تشغيل المنتج بشكل صحيح وآمن؛ توفر كل جهة تصنيع دليل إرشادي يصف غرض المنتج ووظيفته وخصائصه، بالإضافة إلى معلومات الاتصال بالشركة المصنّعة في حالة حدوث مشكلة.
- كما هو الحال مع مصنوعات الإنسان، كذلك مع مصنوعات الله عز وجل. عندما خلق الله البشرية أعطاها كتيبًا إرشاديًا؛ وهو الوحي السماوي المنزَّل من عنده تعالى، والذي شمل جميع البشر على مر العصور والأزمان. لم يترك الله قومًا إلا وأرسل إليهم رسالة سماوية عبر سلسلة متواصلة من الرسل. تضمنت كتبه المنزَّلة على رسله الكرام، عليهم جميعًا الصلاة والسلام: صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، وختامًا القرآن الكريم.





المضي في الحياة دون اعتبار لإرشادات الخالق

١. يستشعر الإنسان قيمة التعليمات عندما يتبع الدليل بالكامل وباستمرار.

٢. على غرار التحذيرات وموانع الاستعمال المذكورة في أدلة المستخدم التي تحذر من عواقب عدم قراءة واتباع كافة المعلومات الواردة بعناية، يوجه القرآن الكريم تحذيرًا للبشر من خطورة إهمال قراءة وتطبيق كتاب خالقهم جل وعلا، فيقول:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى.﴾ (طه ٢٠: ١٢٤)

٣. يضمن التشغيل وفقًا لتصميم وتخطيط الصانع أفضل وأصح أداء ممكن. كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى مصمم للعمل حسب النظام والهدف الذي حدده الله له؛ من أجل تحقيق غاية معينة، من خلال الاستخدام السليم والأمثل له مع تجنب إساءة الاستخدام أو الاستخدام المحظور؛ البشر ليسوا مستثنين من هذه القاعدة.

٤. يستطيع كل إنسان أن يصبح الشخص الذي أراد الله أن يكونه ويعيش الحياة على أفضل وجه، بمعناها الأكمل والأجمل، عندما يطبق القواعد والمعايير التي وضعها خالقه له في كتابه العزيز وشُرِحت في سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؛ فالخالق وحده القادر على أن يقود الإنسان إلى أنقى وأسمى حالات الوجود، ويوجه إلى طريق الهداية والرشاد، كما تقول الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.﴾ (الإسراء ١٧: ٩)

تحذير :

يرجى قراءة وفهم دليل المشغل قبل استخدام هذا الجهاز.

يمكن أن تؤدي إساءة الاستخدام أو عدم اتباع تعليمات التشغيل الآمن إلى الوفاة أو إصابة خطيرة.

كل شيء في الكون خلقه الله تعالى بإرادة، له وظيفة، ويحقق غاية وهدفًا، وهو ما يؤكده القرآن مرارًا بأشد العبارات وضوحًا وسهولة للفهم، وأكثرها مباشرة في إيصال المعنى، بما لا يدع مجالًا للبس أو الغموض:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ.﴾ (الأنبياء ٢١: ١٦-١٧)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.﴾ (ص ٣٨: ٢٧)

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ.﴾ (الروم ٣٠: ٨)

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ.﴾ (الأحقاف ٤٦: ٣)

كل إنسان هو مخلوق مُكرَّم، خلقه الله عزوجل لغاية عظمى

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.﴾

(البقرة ٢: ٣٠)





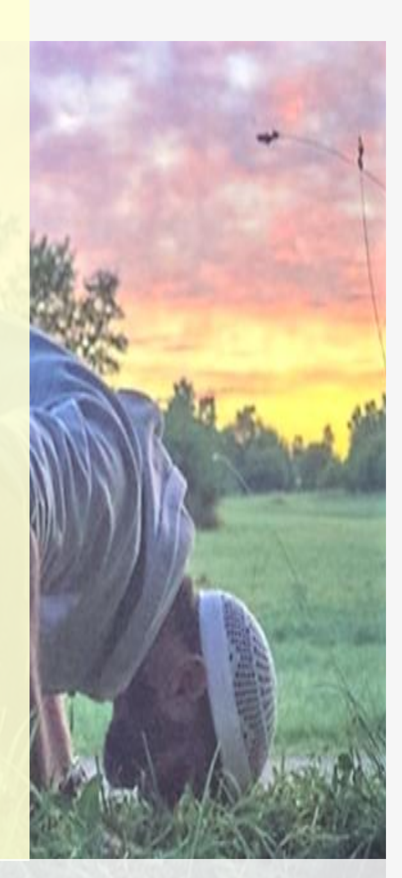
- تمامًا مثل البشر، تتمحور معظم أفعال الحيوانات حول هدف واحد طوال حياتهم؛ وهو البقاء على قيد الحياة.
- تمامًا مثل البشر، هم يتنفسون ويأكلون وينامون ويتكاثرون ويبنون منازلهم ويحمون صغارهم. تمارس الحيوانات أيضًا جميع وظائف الحياة الضرورية، فيما عدا وظيفة واحدة، هي الأعلى على الإطلاق: البحث عن هدف ومغزى لحياتهم؛ فالحيوانات لا تبحث عن غاية عظمى للحياة تتحرك نحوها بمثابرة وتسعى إلى تحقيقها بإصرار.
- الإنسان في أصل تكوينه مخلوق يبحث عن معنى وهدف لوجوده في الحياة؛ فهو يعلم ويدرك تمام الإدراك أنه على قيد الحياة، وأن العالم من حوله موجود، ويسعى خلال مسيرة حياته لمعرفة وتحقيق السبب والغاية من وراء هذا الوجود.
- في الإسلام، الله الخالق سبحانه هو وحده القادر على بيان الغاية الكبرى من خلق الحياة وما تحتويه من كائنات. الله تعالى خلق البشر مميزين عن باقي الكائنات الحية. فقدرتهم على التعلم، والفهم، والتواصل، والإرداة، والشعور، والانفعال، والتعبير عن العواطف، والتفكير العقلاني، والوعي بالذات، والتصرف بمسؤولية؛ تُظهر بوضوح أنهم خُلِقوا لغرض محدد، وهو العيش في صلة مع الله عز وجل. هذه الصلة المباشرة والعلاقة الهادفة يُعرِّفها القرآن الكريم بالعبادة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.﴾ (الذاريات ٥١: ٥٦)
- خلق الله تعالى كل ما في الكون من أجل الإنسان، كما قال في كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.﴾ (لقمان ٣١: ٢٠) أما الإنسان، فقد خلقه الله عز وجل لنفسه واصطفاه من بين سائر المخلوقات لكي يَعْرفه، ويحبه، ويعبده ويكون خليفته في الأرض، يبني ويعمر الحياة، ويعبد الله بالعمل وخدمة الناس، والإحسان إلى جميع المخلوقات، وإقامة العدل.

مفهوم العبادة والخلافة في الأرض

دور الإنسان كعابد

١. **الوجهة:** النص القرآني: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ (البقرة ٢: ١٥٦) يرسم خريطة الحياة الإسلامية ويعرض أسلوبها المتكامل لرؤية العالم والتجاوب معه، تستمد فيه الحياة، وكل ذرة فيها، الاتجاه والأهمية والغاية عندما يصبح الله تعالى نقطة البداية في حياة الإنسان ونقطة النهاية (الرجوع).

٢. **الاختيار المصيري:** البشر، مثل سائر المخلوقات، يجب بالضرورة أن يكونوا في خدمة شيء ما (أكبر منهم)، وكل إنسان خلال رحلة الحياة سيواجه نفس الاختيار: هل سيكون عبدًا لله أم عبدًا لآلهة زائفة من صنعه؟ لا بد من أحد الخيارين، لا ثالث لهما! بالإعلان القرآني: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة ١: ٥) يؤكد الإنسان عبوديته وتوكله على الله وحده، والتحرر والاستقلال من كل ما سواه.



٣. **القوة الوحيدة في الوجود:** عندما ينطق الإنسان شهادة أن "لا إله إلا الله"، هو يسلم نفسه لله تعالى وينقاد لأمره ليس فقط بصفته الخالق، ولكن أيضًا بصفته الإله الواحد، الحق، الولي، الحفيظ، المستعان، الملجأ والملاذ في كل مكروه، الرزاق المتكفل بأرزاق جميع المخلوقات، الموجد للقوانين التي تحكم الكون، صاحب السلطان والقدرة والقوة، من وحده يملك النفع والضر، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والمتفرد بالإيجاد والإعدام، وبالإحياء والإماتة، والإسعاد والإشقاء، والمرض والشفاء. كل ذلك يفرض على الشخص المسلم إفراد الله تعالى بالعبادة فلا يعبد غيره، ولا يسأل غيره، ولا يستعين بغيره، ولا يرجو أو يخشى أحدًا سواه. هذا المنهج للحياة تلخصه الآية الكريمة: ﴿حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.﴾ (التوبة ٩: ١٢٩)

٤. **عبادة تشمل الحياة كلها:** يستوجب الإسلام الصحيح دخول النفس فيه بالكامل، بجعل جميع أنشطة الإنسان في هذه الحياة تتفق مع أوامر ربه عز وجل الذي انقاد له، وخضع لمشيئته، والتزم طاعته. الإسلام، لكونه طريقة حياة شاملة ترتقي بالإنسان إلى درجات الكمال، يُقدِّم مفهومًا متسعًا للعبادة اتساع الحياة نفسها، فلا يقتصر على العبادات الشعائرية فحسب، بل يشمل أيضًا السلوك والمهام اليومية العادية. هكذا تصبح الحياة كلها عبادة ما دام الدافع وراء كل عمل ونشاط، مهما كان صغيرًا، هو النية الخالصة لإرضاء الله عز وجل، ويؤدى طبقًا لشرعه تعالى. يقول الدعاء القرآني: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.﴾ (الأنعام ٦: ١٦٢)

يشير الله عزوجل في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر ١٥: ٤٢) إلى أن إفراده بالعبادة يحرر الإنسان من العبودية والخضوع والتذلل لكل معبود باطل

دور الإنسان كخليفة في الأرض

١. **منزلة خاصة:** وفقًا للقرآن الكريم، خلق الله البشر على أفضل هيئة، وأكمل صورة، وأعلى القدرات العقلية والحسية والحركية والإبداعية، وميزهم على الكثير من مخلوقاته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا.﴾ (الإسراء ١٧: ٧٠) من حيث العقل والفهم والنطق والكتابة واعتدال القامة وحُسن الصورة.

٢. **الجميع على قدم المساواة أمام الله تعالى:** جميع البشر متساوون، لكل منهم قيمة وكرامة متأصلة وحقوق ثابتة. فلا تفاضل بينهم ولا فوارق؛ التمييز الوحيد بينهم لا يكون إلا على أساس التقوى والعمل الصالح، كما أخبر الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.﴾ (الحجرات ٤٩: ١٣)

٣. **الخلافة في الأرض:** كل إنسان يحمل شرف ومسؤولية تحقيق دور خليفة الله في الأرض. هذا الدور المكلف به كل فرد من بني البشر يعني الحفاظ على الأرض وتنميتها وإعمارها وإقامة الحضارة فيها، وهذا بدوره يتطلب تهذيب النفس والاقتداء بصفات الله تعالى (مثل العلم، والسلام، والجود، والرحمة، والعدل) والتمسك بشرعه عز وجل في كافة جوانب الحياة تجاه كل مخلوق.

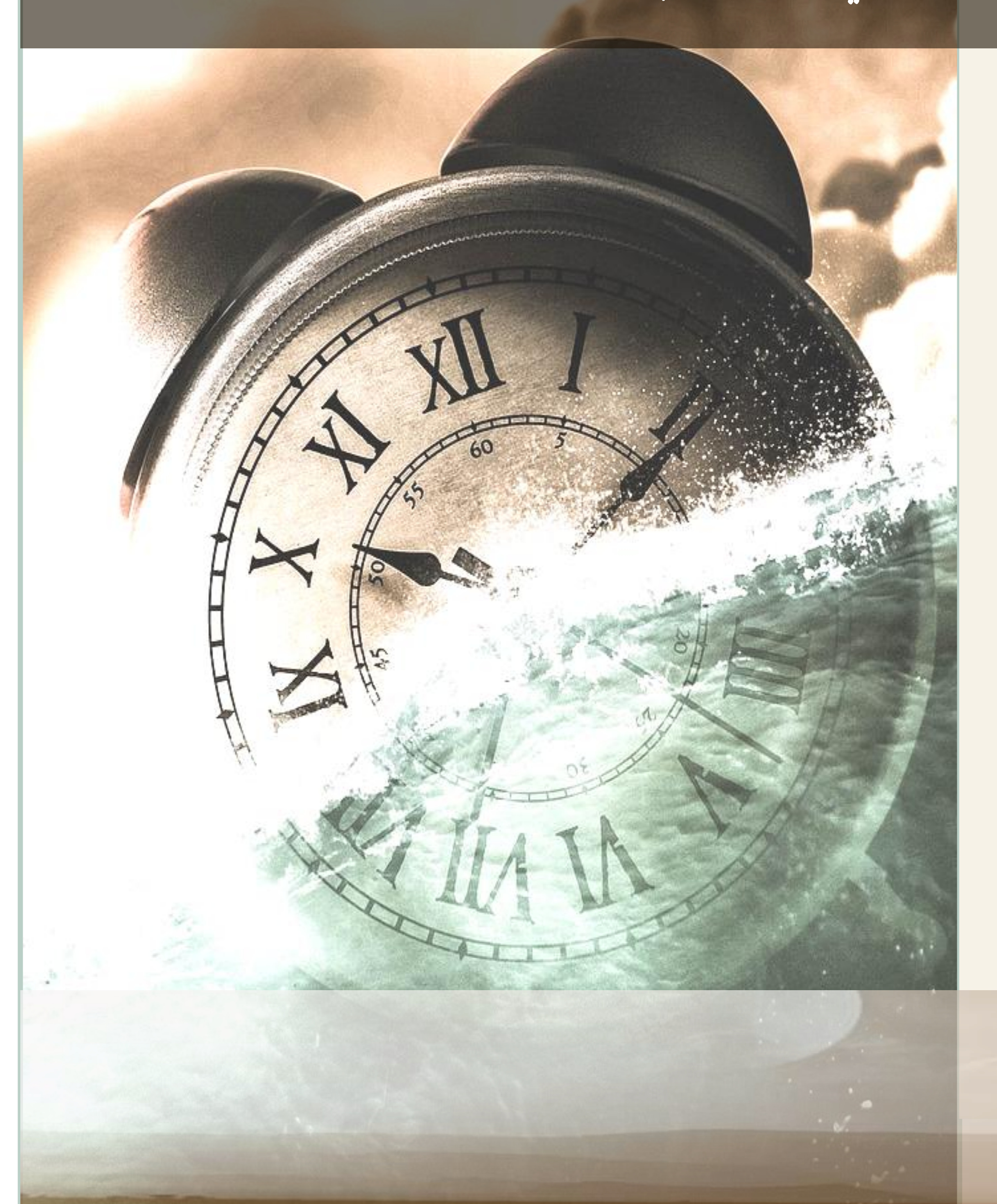
٤. **المسؤولية الفردية:** يتحمل كل إنسان، ولا أحد غيره، عواقب أفعاله، خيرًا كانت أم شرًا. أكثر ممتلكاته أهمية في رحلة الحياة هي الوقت والمعرفة والقدرة، وعليه استغلال كل منها أفضل استغلال وتحقيق أكبر استفادة ممكنة لصالح نفسه والآخرين. ويوم القيامة، سوف يسأل الله عز وجل كل إنسان كيف أنفق كل واحدة من تلك الممتلكات.

٥. **الأمانة:** وضع الله عز وجل الأرض، والطبيعة، والمخلوقات في أيدي البشر كأمانة هم مسؤولون عنها أمامه وليس كممتلكات خاصة؛ وعلى كل فرد حسن استخدام هذه الأمانة لصالح البشرية وكافة المخلوقات بشتى أنواعها الحية وغير الحية. وعندما تنتهي الحياة على وجه الأرض ستكون ضمن المسؤوليات التي سيُحاسَب الإنسان عليها حسابًا دقيقًا.

الهدف من الحياة في الإسلام هو واحد ثابت على طول مسارها، يعم جميع أرجائها



لا إضاعة للوقت في الإسلام



في اللحظة التي يولد فيها الإنسان، تبدأ ساعة العمر في العد التنازلي ولا تتوقف. يقول الإمام الحسن البصري مُعَرِّفًا الإنسان: "يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك".

الوقت هو رأس مال الإنسان في هذه الحياة القصيرة، والقرآن والسنة كلاهما يحثان أشد الحث على إنفاقه في تحقيق هدف صالح واستثماره بحكمة في هذا العالم؛ فغدًا يقف البشر أمام خالقهم ليسألهم فردًا فردًا: **كيف أنفقوه؟**

جاء في الحديث الذي رواه البيهقي أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ، فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَشَبَابِهِ، فِيمَا أَبْلاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ، مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ، مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟»

حرية الاختيار والمسؤولية الأخلاقية

الإرادة الحرة هي إحدى مَلَكات العقل والروح، من خلالها يستطيع الإنسان التميز، واختيار الصواب من الخطأ والخير من الشر

- يوضح الدين الإسلامي أنه لكي يتمكن البشر من خوض اختبار الحياة بحرية تامة، فقد منحهم الله تعالى الإرادة الحرة كقدرة دائمة متأصلة في طبيعتهم المكونة من إمكانيات بدنية وعقلية وعاطفية وروحية.
- اختيارات البشر خلال الحياة الدنيا ليست قسرية أو محددة سلفًا، لكن مع ذلك لا يملك البشر الاختيار في المسائل الخارجة عن نطاق الاختيار أصلًا؛ مثل: الوالدين، والهوية، والجنس، والتركيب الوراثي، وجوانب أخرى مُعيَّنة في حياة الإنسان؛ قُدِّرت له قبل أن يُولَد. هذا على عكس الاختيارات الأخلاقية، فقد تُرِكت حرة وغير محددة سلفًا، وتشمل جميع جوانب الحياة التي يترتب عليها ثواب أو عقاب؛ كلها أمور ليست محكومة بالقدر، ويختارها كل إنسان عن إرادة كاملة وحرة حقًّا.
- مشيئة الإنسان ليست أكبر من مشيئة الله تعالى ولا تتعارض معها، بل الإنسان يتصرف وفقًا لمشيئة الله تعالى الذي أراد للبشر أن يمارسوا حرية الاختيار في مسائل العقيدة والأعمال والأخلاق، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ.﴾ (يونس ١٠: ٩٩)
- بالتالي، فإن قدر الله عز وجل وإرادة الإنسان الحرة أمران حقيقيان لا يستبعد أحدهما الآخر. هما قائمان في الحياة يعملان بشكل متزامن دون أن ينفي وجود أحدهما الآخر. على سبيل الإيضاح، الموت الذي سيأتي في أي لحظة هو مصير كل إنسان، أما فعل الخير أو الشر، والسير في طريق الحق أو الباطل فهذا من صميم الاختيار الحر لكل إنسان.
- البشر يختاروا كما يشاؤون في الحياة الدنيا، لكن الله عز وجل هو من يحدد عواقب ونهايات تلك الاختيارات. البشر أحرار في الاختيار، لكنهم ليسوا أحرارًا من المسؤولية عن عواقب وتبعات اختياراتهم ونتائج حياتهم. فمحصلة كل عمل يقومون به تحددها مشيئة الله سبحانه وتعالى.
- سواء اختار البشر قبول الإيمان بالله تعالى أو رفضوا الإيمان به، فإنهم يظلون، مثلهم مثل سائر الكون، خاضعين لقانون الله المهيمن على الوجود كله. المؤمن يخضع بمحض إرادته، وعن طيب خاطر، في الأمور التي للإنسان فيها اختيار (مثل الإيمان والكفر، والصواب والخطأ، والحق والباطل) وكذلك في الأمور التي ليس للإنسان فيها اختيار (مثل الولادة والموت)، بينما الكافر يخضع مرغمًا في الأمور الخارجة عن نطاق الاختيار الإنساني والإرادة الحرة.
- قدرة الإنسان على ممارسة حرية الإرادة ليست لأجَل غير مسمى أو مطلقة أو غير قابلة للمساءلة، بل إنها مقيدة بحتمية الموت والأمد المحدود لحياة الإنسان على الأرض. وسيتبع ذلك العودة الحتمية لكل إنسان إلى الله سبحانه وتعالى والمساءلة أمامه عن الاختيارات التي اتخذها بمحض إرادته أثناء حياته.

كون الإنسان إنسانًا هو محض عطاء

ولكن... حفاظ الإنسان على إنسانيته هو الاختيار



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ». رواه البخاري

معناه أن الإنسان يُؤْجَرعلى الإحسان إلى أي كائن حي بسقيه وإطعامه وعلاجه ونحو ذلك

وهم الإرادة الحرة

الإرادة والفكر والعاطفة ليست قدرات عقلانية تقع تحت تصرف الإنسان، بل كلها كيميائية

- ليس هناك في الإلحاد شيء اسمه إرادة حرة. البشر يتوهمون أنهم يمارسون الاختيار، لكن صناع خياراتهم الحقيقيون هم التفاعلات الكيميائية التي تحدث في أدمغتهم.

- ليس هناك في الإلحاد حقائق ميتافيزيقية (أمور غيبية تتجاوز حدود الطبيعة، مثل الله تعالى أو الروح). كل ما هو موجود مادي وعضوي بالكامل، وفي النهاية يمكن اختزاله إلى المادة، والمكونات الكيميائية، بالإضافة إلى عنصر الصدفة العشوائية. ومن ثم، كل شيء حي يعمل بطريقة ميكانيكية بحتة، عن طريق تفاعل الجزيئات ببساطة؛ وفقًا لقوانين الطبيعة وعمليات عشوائية تتم بالصدفة.

- البشر جزء من هذا النظام الميكانيكي المادي بالكامل، والفاقد للإدراك والشعور. فكل ما يتعلق بهم، بما في ذلك أدمغتهم، يخضع فقط لقوانين الكيمياء والفيزياء.

- المواد الكيميائية لا تتخذ قرارات، هي تتفاعل فقط، وبما أن البشر مجرد كتلة من المادة والمركبات الكيميائية، فهم لا يعقلون، هم فقط يتفاعلون، لا أكثر من هذا! فليس بمقدور الماء أن يقرر ألا يغلي أو المعادن ألا توصل الحرارة، وكذلك البشر لا يستطيعون أن يقرروا التفكير، أو قول أو فعل أي شيء آخر، بخلاف ما يجري ويُحدَّد كيميائيًّا داخل أدمغتهم المحسوسة – (الإلحاد ينفي العقل، وهو الجزء المعنوي غير المحسوس الذي يُمثِّل القدرة على التميز والإدراك والتفكير والبحث واتخاذ القرار).

- هذا يعني أن جميع الأفكار والآمال والأحلام والمشاعر الإنسانية ليست عقلانية، ولكن كيميائية، ولا يملك البشر أي سيطرة عليها. كل ما يفعله البشر تحدده القوانين التي تحكم الكون بصورة ميكانيكية بحتة؛ ومن ثم فإن الاختيار أو حرية الإرادة عبارة عن وهم.

- يتفق ويليام بروفين (William Provine)، الأستاذ بجامعة كورنيل، مع هذ الرأي مشيرًا إلى أن "الإرادة الحرة بصورتها التقليدية – الحرية في اتخاذ خيارات (واعية) غير متوقعة، من دون إكراه، من بين مجموعة من البدائل الممكنة – هي ببساطة غير موجودة ... مستحيل لعملية التطور بكيفيتها المتصورة حاليًّا أن تنتج كائنًا حر الاختيار حقًّا".

- القدرة الواعية على التفكير والقيام بالأعمال وصنع القرار هي أحد الخصائص الأساسية المكوِّنة للذَّات والهوية الإنسانية. إذا كانت الإرادة الحرة أمرًا وهميًّا، وكل الأفعال تُمارَس دون وعي، فلا يملك أحد من بني البشر التحكُّم في أفعاله أو المسؤولية عنها. وبدون إرادة حرة، لا يمكن حقًّا تحميل البشر المسؤولية أو الذنب تجاه أي تصرف أو فعل يصدر منهم؛ فالجميع محبوس في مسار عمل فُرِض عليهم، تحدده حركة وسلوك الجزيئات والذرات التي تعمل داخل أدمغتهم.

الفطرة: الطبيعة الأصلية التي خلق الله عليها جميع البشر

يقع مفهوم الفطرة في قلب المبدأ الإسلامي للفهم الحقيقي للإنسان؛ فالفطرة عبارة عن بوصلة طبيعية داخل الإنسان، ترشده دائمًا إلى الاتجاه الصحيح وإلى الحق والعدل.

"الفطرة" مصطلح إسلامي فريد ليس له مقابل في اللغة الإنجليزية، يصف الحالة الأصلية النقية السليمة التي خلق الله عليها جميع البشر، والتي تميل ميلًا طبيعيًّا إلى الإيمان بالله وإلى الخير.

بنص القرآن الكريم، كل البشر من جميع الأجناس يُولَدون على هذه الفطرة: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.﴾ (سورة الروم ٣٠: ٣٠)

على عكس عقيدتي الخطيئة الأصلية* (Original Sin) والطبيعة الفاسدة الموروثة من آدم إلى كل البشرية (Total Hereditary Depravity) التي تتبناها الأنظمة اللاهوتية والعقائدية الأخرى، يؤكد القرآن الكريم أن الطبيعة الأصلية الأساسية للبشر هي: الإيمان بالله وحده، ومحبة الخير، وكراهية الشر (وإن مارسه وفعله الإنسان)، وإيثار الحق.

لكن بدون الهداية الربانية تصبح هذه الفطرة الطيبة السليمة عرضة للانحراف عن طبيعتها ووجهتها الأصلية. الفطرة النقية تتغير بتغير البيئة المحيطة بها أو بسبب مؤثرات خارجية وداخلية؛ مثل: التنشئة الأسرية السيئة (عن طريق أفكار ومعتقدات وممارسات خاطئة يغرسها الآباء في الأبناء)، والوسط السيئ (مثل رفقاء السوء)؛ مما يؤدي إلى تكوُّن ركام يغطي الفطرة، ويحجبها عن الاتصال بخالقها.

منهج الله تعالى وحده القادر على أن يحافظ على سلامة الفطرة وتنمية جوانب الخير فيها.

* مذهب مسيحي يعتبر الإنسان خاطئًا وآثمًا منذ ولادته، بناءً على الاعتقاد بأن حالة الخطيئة أو الإثم هذه قد انتقلت بالوراثة إلى البشرية جميعًا من أبيهم آدم، الذي عصى ربه يوم أكل من الشجرة المُحرَّمة.



الخطوط العريضة لنظرة الإسلام إلى الإنسان

- البشرية وُجِدت عن قصد وغاية، وليس عن طريق الصدفة، ولها وظيفة وغاية محددتان، لابد من تحقيقهما.
- الله عز وجل كرَّم البشر وأعطاهم منزلة خاصة بين سائر المخلوقات، فقد خلقهم في أحسن صورة وأكمل هيئة وزوَّدهم بأعلى طاقات الإحساس والإرادة والفكر والفهم والإدراك؛ مما يتيح لهم أقرب علاقة ممكنة مع الخالق عز وجل.
- جميع البشر، رجالًا ونساءً، ينحدرون من نفسٍ واحدةٍ: آدم عليه السلام. وقد خلق الله آدم من أديم الأرض؛ وهو التراب، ثم خلق منه زوجته حواء عليها السلام، ثم خلق منهما سائر البشر عن طريق التناسل والولادة. فالناس جميعًا خُلِقوا من أصل واحد – التراب – مما يجعلهم متساوين في القيمة أمام الله سبحانه وتعالى، وفي الخضوع إلى سلطانه ومشيئته، وفي نيل نعمته وفضله، والمحاسبة والمسائلة أمامه عن أفعالهم.
- خلق الله كل إنسان نقيًّا بلا خطيئة، وأعطاه إرادة حرة، وإدراكًا فطريًّا لوجوده، وإيمانًا طبيعيًّا به، وميلًا متأصلًا نحو عبادته وحده. هذا الاعتقاد والتوحيد الطبيعي عند البشر يُسمَّى في العقيدة الإسلامية «فطرة».
- وحدهم البشر يملكون نعمة العقل والاختيار الحر؛ مما يجعلهم قادرين على الخير والشر على حد سواء، فكلما زادت معرفتهم وصلاحهم وإحسانهم؛ أصبحوا أقرب وأقرب إلى الصورة التي أرادها الله للإنسان. والفرصة أمامهم في أي وقت للعودة إلى حالة الطهارة والنقاء من الذنوب التي وُلدوا عليها، من خلال التوبة المباشرة والصادقة إلى الله تعالى.
- ولأن الإنسان خُلِقَ بميزة خاصة على غيره من المخلوقات؛ وهي العقل والإرادة؛ فقد عهد الله إليه دور الخليفة في الأرض (أي قائم بأمر الله لينفذ شرع الله في عمارة الأرض). هذا التكليف بالخلافة في الأرض يعطي البشر المنزلة الرفيعة والمسؤولية الكبرى بين سائر المخلوقات. وقد وفر الله سبحانه وتعالى لهم التوجيه والنصح والعون اللازم؛ لكي يتمكنوا من تأدية وظيفتهم كخلفاء في الأرض على أكمل وجه.
- التأهل للقيام بدور خليفة الله في إعمار الأرض لا يأتي تلقائيًّا؛ حيث يجب أن يكون الإنسان صالحًا في نفسه ومصلحًا مع غيره، ويسعى سعيًا متواصلًا إلى اكتشاف وإطلاق تلك القوة الكبيرة المختزنة بداخله لهذا المنصب الكريم من خلال تنمية وممارسة الصفات التي تجعله عبدًا حقيقيًّا لله تعالى؛ مثل: الصدق، والرحمة، والجود، والتسامح، والعدل ... يلخصها القرآن الكريم في كلمة واحدة: «التقوى»، وهو شعور الإنسان الداخلي بمراقبة الله تعالى له. وتحصل التقوى وتتعمق في النفس من خلال علاقة قوية ومستمرة مع الله تعالى، بتطبيق العبادة في الحياة كلها.

لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكرم الناس، قال: «النَّاسُ مَعَادِنُ (أصول مختلفة ما بين نفيس وخسيس؛ كما أن المعدن كذلك) كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا .» (صحيح البخاري)

ضمنيًا يعني هذا أن المقدرة على السلوك والأخلاق الفاضلة هبة طبيعية، متأصلة في نفس كل إنسان وتميز شخصيته، يمتلكها البشر بدرجات متفاوتة، وتختلف في قوتها وضعفها من إنسان إلى آخر. تمامًا مثل الأحجار والمعادن النفيسة غير المستخرجة من باطن الأرض؛ تظل مخبأة داخل كل إنسان – أو معروفة ومستخدمة جزئيًا فقط.

كل ما تحتاجه هذه الطاقات الأخلاقية والروحية الكامنة في نفوس البشر هو إطلاقها وصقلها وتوجيهها الوجهة الصحيحة، نحو الأفضل والأكمل، من خلال فهم كافٍ لطبيعة وقوانين النفس البشرية كما عرفها الله عز وجل؛ ومن ثم استخلاص الخير من نفوس البشر وتقوية الصلاح المتأصل في تكوينهم، ودفع القدرات والمهارات بداخلهم نحو أهداف نبيلة ذات جدوى ومضمون. يسري هذا حتى على خيار الناس أخلاقًا وأكرمهم طبعًا. لهذا، وصف النبي صلى الله عليه وسلم غاية رسالته التي بعثه الله بها قائلًا: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ.» (رواه أحمد) أي إن مهمته السمو بالأخلاق الطبيعية لدى كل إنسان، والارتقاء بها نحو الكمال.



نفوس البشر كالمعادن.

تحتاج إلى مزيد من الصقل والتحسين وإزالة الشوائب لتصبح أنقى وأكثر بريقًا، وأكثر قابلية للتشكل والتحول إلى أشياء مفيدة

من أين تأتي الأخلاق؟ ومن أين تأتي القيم؟

- ينبع كامل مفهوم الأخلاق في الإسلام من الاعتقاد الإسلامي بأن الإنسان مخلوق هام وصاحب رسالة في هذه الحياة؛ كل أفعاله وتصرفاته وأقواله محسوبة عليه، وستكون لها تبعات من الثواب والعقاب، وأن كل بنيان الكون ونظامه هادف ومتوازن. فالبشرية ليست سفينة بدون بوصلة في خضم عاصفة عاتية، ولكنها مؤمنة بمجموعة من المعايير الثابتة تعالج جميع المواقف الأخلاقية المحتملة.

- وفقًا للإسلام، الأخلاق أصلها من الله عز وجل، وقوانينها لا تتغير؛ فقد خلق الله عز وجل البشر بحس أخلاقي فطري، إذا تُرِك سليمًا دون أن يقع تحت عوامل إفساد أو تشويه، فإنه يتعمق ويزدهر أكثر وأكثر من خلال وحي الله من كتاب وسنة. ومن ثم، فإن معرفة الصواب والخطأ (أو القانون الأخلاقي) لا تستند فقط إلى الحواس الفطرية في الإنسان أو خبرته في الحياة، ولكن أيضًا إلى المعايير الأخلاقية التي حددها الله سبحانه وتعالى.

- القانون الأخلاقي في الإسلام يأتي من الله عز وجل؛ لذا لا يمكن تغييره، أو تعديله، أو التلاعب به ليتناسب مع رغبات البشر. سيظل دائمًا مطبقًا وملزمًا لجميع البشر على حد سواء، بغض النظر عن الوقت أو المكان أو الظروف – وهو نافذ إلى يوم القيامة. كل ما حرمه الله ووصفه بأنه منكر أو خطأ سيبقى كذلك طوال الوقت، عبر مختلف الأزمنة والعصور وإلى الأبد. وإن استباحت أحد المجتمعات أو جميعها المحرمات وحرموا المباحات؛ فسيظل حرامًا على الإنسان أن يكذب، أو يزني، أو أن يعق والديه.

- في الإسلام، الأخلاق والعقيدة لا ينفصلان. فبدون أخلاقيات حقيقية ستصبح العبادة مجرد إجراء شكلي وطقوس فارغة، كما بيَّنَ القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.﴾ (البقرة ٢: ١٧٧)

- كل جانب من جوانب الإسلام ترتكز قاعدته على الأخلاق؛ فرسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في جوهرها رسالة مبادئ وقيم، تنص كل تعاليمها على ضرورة أن يتجلى الإيمان في جميع الأخلاق والأفعال والمعاملات، وتؤثّر تأثيرًا إيجابيًّا على حياة الفرد والمجتمع (بما يحقق المنفعة ويدرأ الضرر)، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ (أي في الإنسانية) مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ". (البخاري). وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن حُسن الخلق هو علامة اكتمال إيمان المسلم: "إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا". (الترمذي). وأن حُسن الخلق أثقل الأعمال الصالحة يوم القيامة: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ.» (الترمذي). وأن حسن الخلق أكثر شيء يُدخل الناس الجنة: "أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ". (البيهقي)



﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.﴾

(النحل ١٦: ٩٠)

مصدر الأخلاق من وجهة نظر الإلحاد

- منظومة الأخلاق والقيم هي نتاج التطور والخبرة الإنسانية؛ نشأت وتطورت لسبب وحيد ألا وهو أنها ساهمت في بقاء البشر واستقرارهم وساعدت على التناسل والإنجاب.
- " لا تقتل"، "لا تسرق"، "لا تكذب" وغيرها من المعايير الأخلاقية تم تطويرها من أجل التكيف مع الحياة والحفاظ على بقاء الجنس البشري وازدهار سلالته في الكون. فالأخلاق عبارة عن عقد بين البشر كمجموعة، بموجبه يتفقون فيما بينهم أنه لا يجوز لأي شخص إلحاق الضرر بالآخرين حتى يتمكنوا من العيش في سلام. والهدف الرئيسي من هذا الاتفاق هو زيادة حجم استفادة الفرد في وسعادته الحياة، وتقليل أسباب الأذى والشقاء.
- ليس للأخلاق أساس دائم أو مطلق أو موضوعي، المسألة بأكملها مسألة آراء وتفضيلات ومصالح؛ لا أصل لها غير ذلك، وترتبط بثقافة مجتمع بعينه أو بيئة معينة.
- يحدد المجتمع ككل (خصوصًا الفئات أو الجماعات المسيطرة فيه) قواعد الصواب والخطأ الخاصة به. ونظرًا لاختلاف الآراء والأهواء من وقت لآخر ومن مكان لآخر، فإن معايير الصواب والخطأ تختلف بدورها اختلافًا كبيرًا.
- ومن ثم؛ فوفقًا للإلحاد، الأخلاق ليست مبادئ ثابتة، ولكن نظام يشكله ويهيمن عليه العادات والتقاليد المجتمعية، والقوى والميول الاعتباطية، فعندما يتغير الذوق الجماعي العام في أحد المجتمعات تتغير معه معاييره الأخلاقية. وقضية الشذوذ الجنسي (اللواط) هي أوضح مثال على ذلك، فما اعتبره معظم الناس تصرفًا مدانًا من الناحية الأخلاقية في الماضي أصبح في الوقت الحالي أمرًا مشروعًا عند بعض الجماعات، يشيدون به ويقيمون له احتفالًا. ففي هذه الحالة، تحول الشذوذ الجنسي من سلوك مذموم أخلاقيًّا إلى مقبول أخلاقيًّا.
- لأن الحياة، من وجهة نظر الإلحاد، لا معنى لها في الأساس؛ فالأخلاق، مثلها مثل كل شيء آخر في الكون، ليس لها قيمة أو فضل جوهري؛ فالهدف من الأخلاق أن يكون الإنسان سليم الأخلاق، هذا كل ما في الأمر لا أكثر ولا أقل.

"دعوني أُلخص آرائي حول ما تخبرنا به البيولوجيا التطورية الحديثة بصوت عالٍ وواضح – وهذه في الأصل هي آراء داروين: لا توجد آلهة، ولا غايات، ولا أهداف، ولا قوى موجهة بهدف من أي نوع. لا توجد حياة بعد الموت. عندما أموت أنا موقن تمامًا أني سأكون ميتًا بشكل كلي؛ هذه هي نهايتي. ولا وجود لأساس (أصل) نهائي للأخلاق، ولا وجود لمعنى نهائي للحياة، ولا إرادة حرة للبشر كذلك". وليام بروفين (William Provine) بروفيسور الأحياء التطورية الأمريكي.



من الذي يقرر ما الخطأ وما الصواب؟



«في عالم بدون إله، من الذي يستطيع أن يقرر أي القيم صحيحة، وأيها خاطئة؟ من الذي يستطيع أن يحكم على القيم التي سار عليها أدولف هتلر بأنها أسوأ من قيم القديسين؟ مفهوم الأخلاق يفقد كل معانيه في عالم بدون الله. كما يشير أحد علماء الأخلاقيات الإلحادية المعاصرين: 'القول بأن أمرًا ما هو خطأ لأن الله حرَّمه ... أمر مفهوم تمامًا لأي شخص يؤمن بوجود إله مشرِّع (هو الذي يضع قانون الصواب والخطأ). لكن القول بأن شيئًا ما هو خطأ على الرغم من عدم وجود أي إله ليقرر أنه حرام، أمر غير مفهوم...' إن مفهوم الالتزام الأخلاقي بعيدًا عن الاعتقاد بوجود الله يصبح مبهمًا وغامضًا؛ مجرد ألفاظ بلا معنى.» الفيلسوف اللاهوتي الأمريكي، وليام لين كرايج (William Lane Craig).

المسوغ النفسي المنطقي وراء إنكار وجود الله

يلخص الروائي والفيلسوف الروسي فيودور دوستويفسكي بإيجاز العواقب المعنوية والنفسية التي تترتب على الفكر الرافض لوجود إله بقوله: "إذا دمرت في البشر الإيمان بالخلود، فسرعان ما سيجف ليس فقط الحب ولكن كل قوة حية تحافظ على استمرارية حياتهم في هذا العالم. أكثر من ذلك، لن يكون هناك شيء منافيًا للأخلاق، سيكون كل شيء مشروعًا، حتى أكل لحوم البشر".

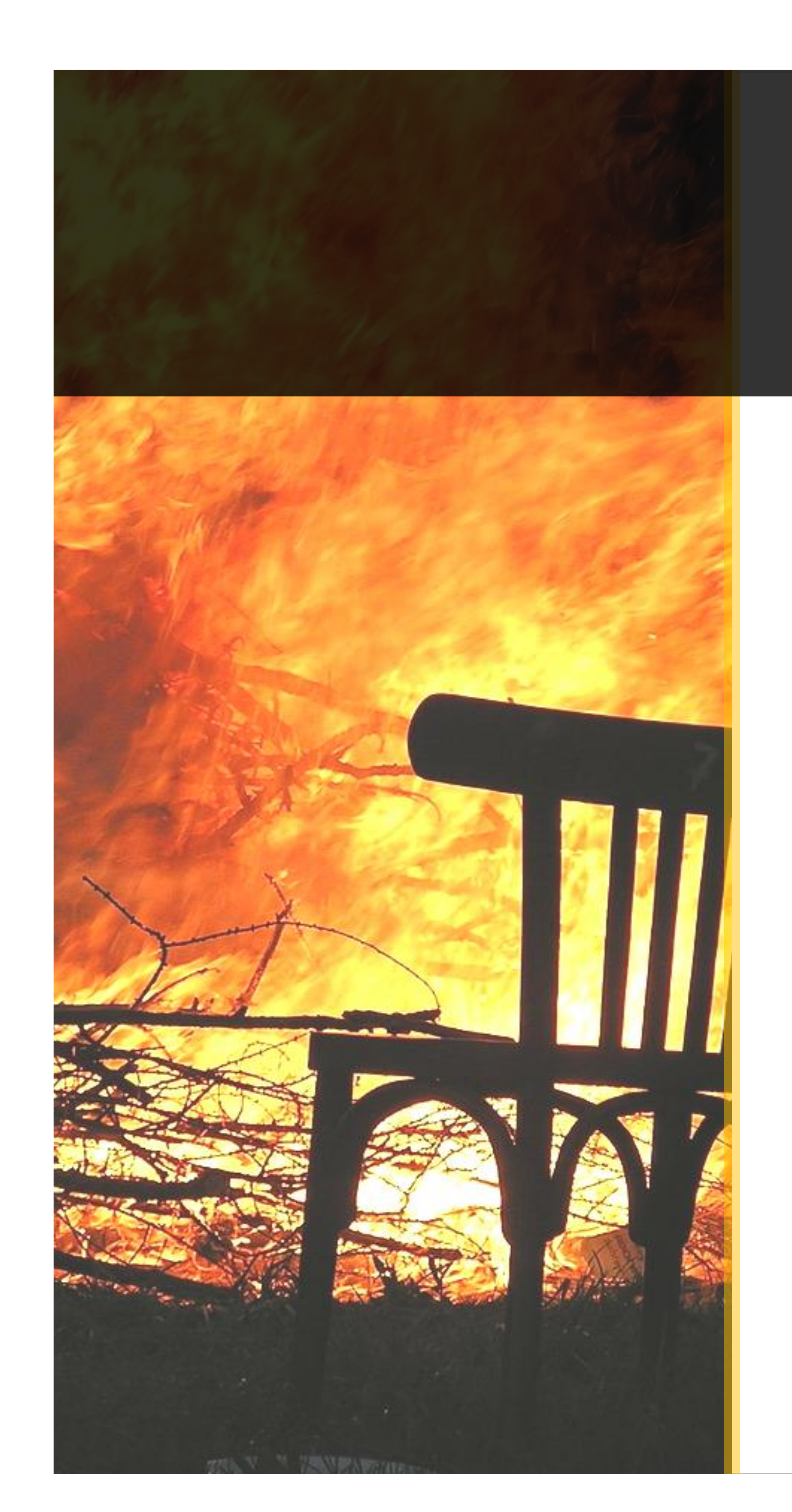
وعلى الرغم من أن وجود الله أمر واضح، لا يفتقر إلى دليل مقنع وحاسم لتصديقه، إلا أن إنكار وجود الله عز وجل بحجة عدم القدرة على رؤيته لا يروي القصة بأكملها. التصريح للإنسان بأن يفعل كل ما يحلو له، دون الإحساس بالذنب، لا يمكن أن يحصل إلا في عالم ليس فيه قانون أخلاقي؛ عالم ليس فيه إله.

في كتابه اعترافات مفكر محترف حر (Confessions of a Professional Free-Thinker)، صرَّح ألدوس هكسلي (Aldous Huxley) بأن العديد من الملحدين هم كذلك لأسباب أخلاقية، وليس لأسباب فكرية:

> كان لدي أسباب وراء عدم رغبتي في أن يكون للعالم معنى؛ ولذلك افترضت أن العالم ليس له معنى، واستطعت بسهولة العثور على أسباب مُرْضِيَة لهذا الافتراض ... بالنسبة لي، ولمعظم جيلي بلا شك، كانت فلسفة اللا معنى أداة للتحرر من نظام أخلاقي مُعيَّن؛ فقد عارضنا المبادئ الأخلاقية لتدخلها في حريتنا الجنسية.

وفقًا لاعترافات هكسلي، ما يكمن في قلب الإلحاد ليس رفض وجود الله عز وجل، بل الاختيار والقرار بعدم الخضوع إليه وطاعته.

هذا ما يؤكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا.﴾ (النحل ١٦: ٨٣) الكفر في اللغة هو: ستر وإخفاء وتغطية لشيء موجود فعلًا، وحقيقة ثابتة يحاول الكافر إنكارها. فكل إنسان يعلم وجود الله تعالى بفطرته، وعقله يدرك وجود الله تعالى (بالدليل العقلي الذي وضعه الله داخل الإنسان وفي الكون المحيط به). يقول الشيخ نديم الجسر: "فكرة وجود الله لا تحدث تناقضًا عقليًّا، بل الذي يحدث التناقض العقلي هو نفي هذه الفكرة". الإلحاد ليس مسألة عدم معرفة. بل مسألة مكابرة، كما بيَّنَ المفكر مصطفى محمود، الإلحاد في حقيقته موقف اختياري نفسي (وليس عقليًّا) لا يرغب في تصور وجود قوة فوق الإنسان تأمره وتنهاه، وأنه مكلف ومسؤول ومحاسب عما يقع منه.



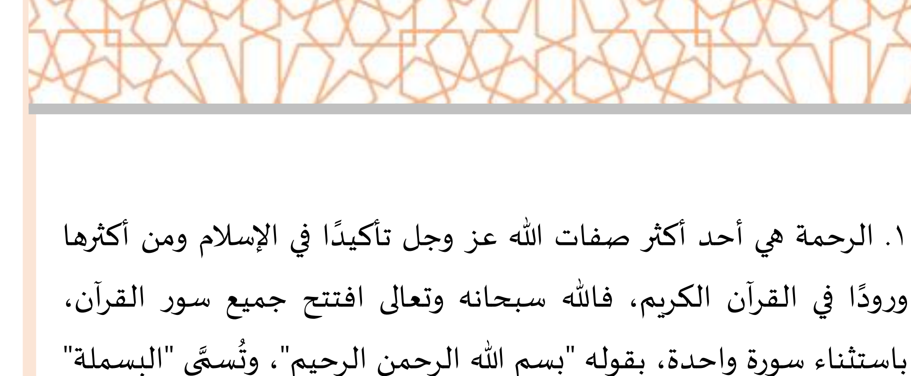
معضلة وجود الشر

من وجهتي النظر المختلفتين لكل من الإسلام والإلحاد

- من وجهة نظر الإلحاد، تشكِّل معضلة الشر، سواء بسبب وحشية البشر تجاه بشرٍ آخرين أو بسبب الكوارث الطبيعية التي تحدث في مختلف أنحاء العالم (مثل الفيضانات والزلازل والحرائق)، أكبر عائق أمام الإيمان بوجود الله تعالى.
- يزعم الإلحاد أن وجود الشر والمعاناة في العالم يستحيل معه وجود إله رحيم، قدير، وعليم؛ وإلا كان منع حصول أي شر أو معاناة.
- يفترض الإلحاد أنه ولو كان لدى الله تعالى ما يكفي من المبررات للسماح بحدوث بعض الشرور أو المعاناة لتحقيق خير ما أعظم، فإنه في هذه الحالة لن يسمح إلا بأقل قدر ضروري من الشر والمعاناة. لكن الحالات الضخمة من الشرور التي تبدو بلا جدوى (غير مبررة)، ولن ينتج عنها منفعة أعم أو مصلحة أكبر، تُقدِّم دليلًا قويًّا على عدم وجود الله.
- ينفي الإلحاد عنصر الإرادة الحرة بحجة أنه حتى وإن قدَّم تفسيرًا مُرْضِيًا للشر المعنوي الناتج عن الخيارات البشرية الخاطئة أخلاقيًّا؛ مثل القتل والزنا والعنصرية، فإنه يعجز عن تفسير الشر الطبيعي؛ مثل الزلازل والأمراض والأعاصير والمجاعات. فكله يقع بغير ذنب من البشر، دون أن يكون لهم يد فيه، ولا يملكون أي قوة أو سلطة لمنعه.

الرحمة هي الأساس ...والمغفرة وعد





١. الرحمة هي أحد أكثر صفات الله عز وجل تأكيدًا في الإسلام ومن أكثرها ورودًا في القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى افتتح جميع سور القرآن، باستثناء سورة واحدة، بقوله "بسم الله الرحمن الرحيم"، وتُسمَّى "البسملة" اختصارًا.

أيضًا في أمور الحياة العادية، تتردد البسملة كثيرًا على ألسنة المسلمين قبل الشروع في أي عمل (مهم) طلبًا للعون والبركة من الله عز وجل. هذا التكرار للبسملة في يوم المسلم يستحضر معية الله، ويزرع الثقة، ويرسخ اليقين بأن مراد الله النهائي من الخلق هو العناية والرحمة.

٢. وردت في رحمة الله أحاديث كثيرة، منها الحديث القدسي الذي رواه النبي الأكرم عليه أفضل الصلاة والسلام عن ربه عز وجل قال: "إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي". (رواه البخاري) بينما في القرآن الكريم يصف الله عز وجل رحمته بأنها ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف ٧: ١٥٦) أي عمت كل الأشياء دون تخصيص، أو تقيُّد، أو استثناء؛ مما يدل على أن الرحمة هي السمة الرئيسية المهيمنة وراء كل أفعال الله تبارك وتعالى.

٣. لا يختزل الإسلام صفات الله وأسماءه إلى القدرة والعلم والخير، ويتجاهل سلطان الله وحكمته وعدله وقدرته وقضاءه وغضبه وعقابه. واستنادًا إلى قول النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ فإن لله عز وجل تسعة وتسعين اسمًا وصفة، تنقسم إلى قسمين: صفات جمال (وهي: صفات اللطف، والكرم، والرحمة، والعفو، والإحسان) وصفات جلال (وهي: صفات القوة، والقدرة، والعزة، والعظمة، والكبرياء، والكمال، والجبروت). فالله هو الرؤوف، اللطيف، الرحيم، الودود، الصبور، الغفور، الكريم، الحليم، الحفيظ، وهو كذلك القوي، الحكم، العدل، المهيمن، الرقيب، المنتقم، الجبار، القهار.

٤. النظر من جانب واحد إلى الله سبحانه وتعالى على أنه ودود فقط أو منتقم فقط يترتب عليه تكوين صورة خاطئة عن الله عز وجل؛ وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.﴾ (المائدة ٥: ٩٨).

يعني هذا أن بناء علاقة صحيحة مع الله تعالى وتكوين نظرة سليمة إلى الحياة بوجه عام تتطلب من الإنسان العيش بإدراك كامل لجميع صفات الله – صفات الجمال جنبًا إلى جنب مع صفات الجلال. وكما يليق بكل صفة؛ فكلا الجانبين من الصفات الإلهية يعملان معًا ويُحْدِثان في النفس التوازن الصحيح بين الخوف من الله تعالى والرجاء فيه سبحانه، دون تغلب جانب على الآخر (كجناحي الطائر، إذا استويا استطاع الطيران في الجو، وإذا اختل واحد منهما سقط فلا يستطيع الطيران).

الحياة كلها اختبار من الله تعالى

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.﴾
(الأنبياء ٢١: ٣٥)

تفسير البغوي: (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم) نختبركم (بالشر والخير) بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، وقيل: بما تحبون وما تكرهون، (فتنة) ابتلاء؛ لننظر كيف شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون، (وإلينا ترجعون).



١. ما دامت صفات الله ومقاصده كلها كمالًا، فلا يمكن أن يكون هناك شر أو معاناة في هذا العالم دون جدوى أو حكمة وراءهما. فدائمًا وأبدًا قرار الله بالسماح بشيء أو منع شيء ينبع من معرفته وحكمته وعدله، وكذلك خطته ومشيئته.

٢. يفتقر البشر إلى المعرفة الواسعة اللازمة لفهم سنن الله تعالى أو الحكم عليها ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا.﴾ (الإسراء ١٧: ٨٥) يفتقر البشر كذلك إلى الصبر على قضاء الله وقدره حتى تنكشف الحكمة الربانية منه ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا.﴾ (الكهف ١٨: ٦٧-٦٨) ولا يملك البشر الحق ولا القدرة ولا السلطة على استجواب الله عز وجل عن قضائه في خلقه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.﴾ (الأنبياء ٢١: ٢٣)

٣. يستحيل على البشر المعرفة التامة والإحاطة الشاملة بالغايات والعلل والحِكَم الإلهية التي تُبرِّر كل حالة من حالات الشر أو المعاناة التي وقعت في العالم على مر التاريخ وعبر الأزمنة. لكن بصورة عامة، يُقدِّم القرآن الكريم رؤية واضحة للأسباب العامة للشر والمحن على الأرض.

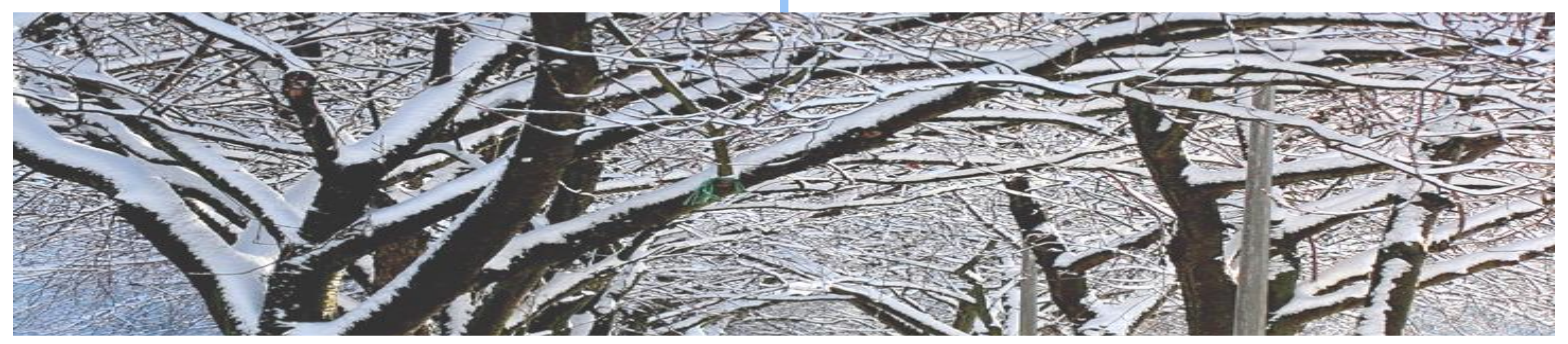
٤. وفقًا للقرآن الكريم، الحياة كلها، بكل ما فيها من أحداث جيدة وسيئة، هي اختبار وابتلاء من الله عز وجل، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ.﴾ (الملك ٦٧: ٢) امتحان الحياة مفروض على جميع البشر؛ الله هو من يقرر نوعه، ووقته، ومكانه، وحجمه. يخبر الله تعالى عن الامتحان بالشدائد في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ.﴾ (البقرة ٢: ١٥٥) كل إنسان سيُمتحَن على جهتين: داخليًّا (نواياه وأعماله الباطنة)، وخارجيًّا (أقواله وأعماله الظاهرة) ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.﴾ (البقرة ٢: ٢٣٥)

٥. الابتلاء والمعاناة جزء من طبيعة اختبار الحياة؛ فوفقًا للقرآن، المعاناة عنصر حتمي وجوهري لا بد من المرور به في فترات الحياة الدنيوية، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ.﴾ (البلد ٩٠: ٤) في كبد: أي في شدة وعناء.

٦. الحياة البشرية عبارة عن مسيرة متواصلة من المشقة. كل مرحلة من مراحلها تجلب معها مجموعة التحديات الخاصة بها، وعلى طول الحياة وعرضها سيواجه كل إنسان صراعات مختلفة إلى أن يموت، كما أخبر الله جل وعلا عن ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ.﴾ (الإنشقاق ٨٤: ٦) معناه أن الإنسان يقطع رحلة حياته في كدح دائم: أي سعي شاق ومضنٍ. ومهمة القرآن ليست القضاء النهائي على المعاناة؛ فهو لم يأتِ لهذا، بل جاء لِيَعْبُرَ بالإنسان الصعاب، ويعطيه القدرة على النهوض بنجاح من الأزمات والانطلاق من جديد. قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا.﴾ (الشرح ٩٤: ٥-٦) وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَإِنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ". (رواه الحاكم في المستدرك) فكلما وُجِد عسر وصعوبة في حياة الإنسان، فإن اليسر يأتي متزامنًا معه، يقارنه ويصاحبه.

٧. الغنى والفقر، السعادة والألم، الرخاء والشدة، الصحة والمرض وغيرها من الفوارق بين الأفراد ليست دلائل على رضا أو سخط الله عز وجل؛ فهي مجرد وسائل يُمتحَن بها شعور وردة فعل كل إنسان تجاه المواقف المختلفة التي سيتعرض لها على مدار حياته، الحسنة منها والسيئة، المفرحة منها والمحزنة على حد سواء.

٨. مع هذا الفهم للحياة والإدراك للوجود، لا ينظر المسلم للوقائع التي يعيشها بأنها سلسلة من أحداث تافهة لا معنى له، أو تؤخذ على ظاهرها فقط (التعامل مع الأمور بضيق أفق ونظرة قصيرة من زاوية واحدة، مقتصرة على جزء بسيط من الواقع). بل النفس المسلمة تتعامل مع الأمور كلها من منطلق علم الله المطلق الكامل الشامل، المحيط بظواهر الأمور وبواطنها، العالم بحقائقها، وهو ما يقوله القرآن الكريم: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوْا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوْا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُوْنَ.﴾ (البقرة ٢: ٢١٦)



السبب الوحيد للشر

- الإسلام لا يصنف جميع المصائب على أنها "ابتلاءات"، لكنه يُفرّق بين العقاب والابتلاء. الابتلاءات والمحن هي اختبار لشخصية الإنسان وقوة إيمانه، أما العقاب فيأتي نتيجة ارتكاب ذنب أو تجاوز.

- الإسلام يعتبر الآثام والذنوب السبب الوحيد للشر، ويحمل البشر مسؤولية وقوع الشر وعواقبه المؤلمة.

- في العديد من الآيات، يوضح القرآن الكريم أن أي شر أو كارثة تصيب البشر هي بسبب الذنوب التي ارتكبوها عن عمد: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ.﴾ (النساء ٤: ٧٩) ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ.﴾ (الشورى ٤٢: ٣٠)

- ختام الآية الأخيرة ﴿ ... وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ...﴾ يدل على صبر الله تعالى على عباده ورحمته بهم. فعلى الرغم من مقدرته عز وجل على أن يُنزل العقاب فورًا، إلا أنه لا يفعل. بل على العكس، يتجاوز عن الكثير من الأخطاء والسيئات التي يرتكبها البشر، ويمهلهم ويعطيهم الفرصة تلو الأخرى لكي يستغفروا ويتوبوا. وإلا، فإنه إذا عاقب الله عز وجل البشر في الحال على كل مخالفة يومية، ابتداءً من كل نظرة أو كلمة أو فكرة خبيثة إلى كل أنواع الجرائم، فسيعيشون في مصائب وابتلاءات مستمرة.

- على الرغم من شدة العقوبات الدنيوية التي تقع على شكل كوارث طبيعية مدمرة أو أوبئة أو حروب، فإنها تعتبر رسائل تحذيرية في جوهرها، غرضها الحث على محاسبة النفس وتصحيح أخطائها، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.﴾ (سورة الروم ٣٠: ٤١)

- يوجد في العالم مشاكل ومآسٍ لا حصر لها؛ مثل: الإبادات الجماعية، والتعذيب، والعنصرية، والحصانة من العقاب، والإدمان، وانتشار الجوع، والسمنة، والربا، والقمار، والانحلال الأخلاقي وغيرها من الأمراض الاجتماعية... ومن الواجب على كل إنسان (وليس الله تعالى) أن يشارك بفعالية وصدق في مقاومتها وإزالتها، مع السعي الإيجابي في تغيير الواقع السيئ، وجعل العالم مكانًا أفضل؛ تطبيقًا للعديد من مبادئ الإسلام وتعاليمه، مثل قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ". (صحيح مسلم)

- حدد القرآن الكريم دور البشر في الوجود بأنه خلافة الله على الأرض، وذلك بإقامة قانونه العادل والمستقيم في واقع الحياة على مستوى الفرد والجماعة. يعني هذا أنه يجب على البشر العمل بلا كلل من أجل تحسين أنفسهم باستمرار وتحسين الآخرين أيضًا، جنبًا إلى جنب مع الحفاظ على الأرض التي خلقها الله لهم، ومهّدها لاستقرارهم. فعلى كل إنسان إحداث تأثير حقيقي في محيطه وعالمه بما يحقق الخير والنفع وعمارة الأرض.

- المسلم، بالمعنى الحرفي للكلمة، هو من يسلم أموره لله عز وجل ويجد السلام في ذلك التسليم لأمره والرضا بقضائه، سواء أكان المكروه الذي أصابه اختبارًا أم عقابًا أم كليهما؛ فالمسلم يثق بالله جل وعلا دون البحث والتساؤل كثيرًا عن العلة وراء قضاء الله وقدره. وتمثل عبارة "الله أعلم" سمة مميزة من سمات المسلمين، ينهون بها جميع تساؤلاتهم عن تقلبات الحياة وقضاء الله وقدره. ويظل من واجبهم، في كل تصاريف القدر، اتخاذ موقف إيجابي والنظر في حياتهم لمعرفة ما إذا كانت تصرفاتهم تتماشى حقًّا مع كتاب الله وقيمه.

- يرتكز الثواب والعقاب على الصواب والخطأ؛ فالغرض منهما هو تطبيق عدل الله سبحانه وتعالى. ويؤكد الإسلام أن أعمال الإنسان لن تمر دون محاسبة؛ فكل كلمة، وكل فعل، وكل خاطر، وكل نية تصدر من الإنسان تُكتَب وتُسجَّل عليه، ثم يُجازى عليها بالثواب أو العقاب، بعض منه يقع في هذه الحياة الدنيا، ولكن بالتأكيد كله سيأتي في الحياة الآخرة. ويعبر القرآن عن دقة هذا الحساب الذي ينتظر كل فرد على النحو التالي: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.﴾ (سورة الزلزلة ٩٩: ٧-٨)

الله موجود

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ.﴾ (الأنعام ٦: ٥٩)



لا يصعب عليه أن يراك؛ من يرى النملة السوداء، تدب فوق الصخرة السوداء، تحت غطاء الليلة الظلماء.

لا يصعب عليه معرفة ما بداخلك؛ من يعرف كل ورقة يتبدل لونها وتسقط من كل شجرة خريف.

الله يراك، ويسمعك، ويعرف ما هو مختبئ بعيدًا في أعماق أعماقك، ولا يزال بالنسبة لك لغزًا.

يمكنه أن يميز همسك الخافت من بين أصوات بلايين الأشخاص الآخرين. الصراخ والجدل وضجيج الأسواق لا يغرق صوتك. هدر المحيطات العاصفة لا يغرق صوتك. عند اتصالك به، صوتك لن يتشوش أو ينقطع. هذه ليست مكالمة بعيدة المدى.

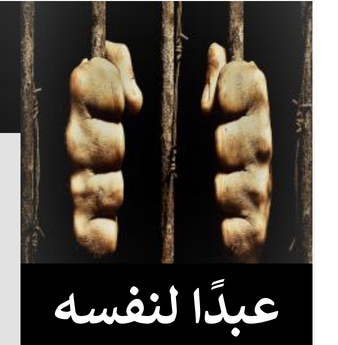
معاناتك لا تخفى عليه. غضبك لا يخفى عليه. تلك المشاعر التي كبحتها بداخلك وسيطرت عليها لا تخفى عليه. حقيقة كل شيء، على الرغم من كتمانك لها عن الجميع، لا تخفى عليه.

لا توجد لحظة يخفق فيها بصره عن رؤيتك، أو سمعه عن سماعك، أو علمه عن معرفة ما بك.

لماذا إذن تسعى فقط إلى أن تراك أو تسمعك أو تفهمك مخلوقاته، ورؤيتهم وسمعهم ومعرفتهم جميعها تخفق طوال الوقت؟

الكل يخفي شيئًا ما. وما دام كل ما هو مخفي معروفًا له وحده، إذن طلب الرضا الحقيقي، واليسر الحقيقي، والسلام الحقيقي لا يكون إلا عند بابه.

- الكاتبة أسماء حسين



عبدًا لنفسه

- جميع البشر، حسب آيات القرآن، لديهم إله، حتى لو كان ذلك الإله هو الإنسان ذاته. ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ.﴾ (الجاثية ٤٥: ٢٣)

- بعبارة أخرى، لا يوجد ملحد حقيقي (شخص لا إله له). جميع البشر يتخذون لأنفسهم إلهًا. جميع البشر يعبدون شيئًا ويتشبثون به باعتباره محور تقديسهم وعبادتهم وطاعتهم. قد يكون هذا الشيء هو الثروة، أو الممتلكات، أو المتعة، أو المكانة المرموقة، أو القوة، كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ. »(رواه البخاري). وخلاصة القول أنه ليس هناك إنسان ليس له معبود، كل أحد في الدنيا له معبود (يعني: أن من لم يعبد الله؛ فلا بد أن يعبد غيره)، قال الروائي ديفيد فوستر والاس (David Foster Wallace): "لا يوجد في حقيقة الأمر شيء اسمه الإلحاد. لا يوجد شيء اسمه عدم العبادة. الكل يعبد. والخيار الوحيد الذي يتاح لنا هو اختيار ما نعبد".

- وعن نفس المعنى كتب الروائي الروسي الكبير دوستويفسكي (Dostoevsky)، يقول بتأثر: "العيش بدون الله ليس سوى عذاب ... لا يمكن للإنسان أن يعيش دون أن يركع ... إذا رفض الله، فسيركع أمام صنم من خشب أو من ذهب أو صنم وهمي. هم ليسوا ملاحدة، كلهم عبدة أوثان – هذا ما يجب أن يُطلَق عليهم".

- عبادة المخلوقات، بدلًا من الخالق، تتعارض مع تصميم الخالق سبحانه وتعالى، ومستحيل لها أن تشبع الروح البشرية. الروح، مثلها مثل الطبيعة، تمقت الفراغ. عند حذف الله تعالى من حياة الإنسان، يجب أن يتحرك شيء ما لملء الفجوة وأخذ مكانه. لا شيء محدد قد يسد الفجوة أو يشغل جزءًا منها، مع المحاولات البائسة المستمرة للتغلب على الإحساس الداخلي بالخواء. لكن بالرغم من هذا، وأيًّا كانت البدائل التي يختارها الإنسان لتحل محل الله تعالى في حياته وتخفف ما أصابها من فراغ وخواء وضجر، فإنها تعمل فقط لفترة من الوقت، تمامًا كما تفعل المخدرات والمسكرات، قبل عودة الإحساس بالفراغ من جديد، أشد وأضخم من ذي قبل نتيجة زيادة الوعي، واليقين الكامل، بأن لا شيء يمكن أن يمحو من داخل الإنسان هذا الفراغ المؤلم المتواصل، ويحقق له السعادة والشعور بالرضا عن الحياة. فكل البدائل التي يضعها الإنسان محل الله جل وعلا تؤدي دائمًا إلى الإحباط والقلق. حتى الاستمتاع بالأشياء الجميلة في الحياة لا يمكن أن يكون ممتعًا حقًّا ومرضيًا للنفس البشرية في غياب الله. الله عز وجل وحده القادر على بعث الرضا والارتياح والطمأنينة في قلوب البشر، يقول تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ.﴾ (الرعد ١٣: ٢٨)

- البشر مزودون بالقدرة على أن يكونوا على صلة بالله عز وجل؛ لذا جميع أفراد البشر في أعماقهم – في نبض قلوبهم – يريدون الله. فشوق الإنسان واحتياجه إلى خالقه جزء من طبيعة تكوينه النفسي وفطرته التي خُلِق عليها. لهذا السبب، يستحيل، ولن يحدث أبدًا، أن يجد الإنسان السلام النفسي أو أي معنى للحياة أو قيمة أو هدفًا بعيدًا عن خالقه. فما لا يمكن الحصول عليه إلا مع الله، لا يمكن طلبه في شيء أدنى. هذا ما اعترف به الفيلسوف الملحد البريطاني الشهير، برتراند راسل (Bertrand Russell)، في سيرته الذاتية: "بداخلي دائمًا وأبدًا ألم رهيب - ألم غريب متوحش - بحث عن شيء يتجاوز ما يحتويه العالم، شيء متجلٍّ بجلال لا محدود؛ الرؤية السعيدة (Beatific Vision؛ مصطلح في اللاهوت الكاثوليكي يصف الرؤية المباشرة لله التي يتمتع بها المؤمنون في الجنة) – الله. أنا لا أجده، ولا أعتقد أنه من الممكن العثور عليه، لكن حبه (حب الحصول عليه) هو حياتي ... إنه يملأ كل عاطفة لديَّ. إنه الربيع الحقيقي للحياة بداخلي".

عندما لا يجد الإنسان من يشكره

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ.﴾ (الإنفطار ٨٢: ٦-٧) يتساءل القرآن مستنكرًا: في أي أجزاء الحياة، وبأي الوسائل، يعيش البشر معتمدين كليًّا على قواهم عندما يمتنعون عن الإقرار بأن الله هو رازقهم، وواهبهم جميع تلك النعم والقدرات التي بسببها يستكبرون عن الحق وهم يرونه، ويشعرون بالاستغناء والاستعلاء وعدم الحاجة؟!

حتمًا، في وقت ما خلال اليوم، يشعر كل إنسان بالعطش والجوع والتعب. وفي اللحظة التي تفضح تلك الاحتياجات الأساسية لكل إنسان بوضوح حقيقةَ عجزه واحتياجه ومحدوديته وكذب استغنائه بنفسه؛ فإنها تشده شدًّا نحو القوة (العلية) الموجودة خارج نفسه؛ القوة التي تسد احتياجاته بسخاء، دون توقف، وبلا حدود.

يوم واحد بدون طعام أو نوم له آثار سلبية عميقة على جسم الإنسان؛ وحاجة الإنسان ليست محصورة فقط في المتطلبات الجسدية من مطعم ومشرب ومسكن وملبس، وإنما له احتياجات روحية بنفس القوة. فمهما كان نوع التجربة التي يخوضها الإنسان، سواء أكان حزنًا أو فشلًا أو خسارة أو سعادة أو مكسبًا أو نجاحًا، فإنه سيظل دائمًا بحاجة إلى الله عز وجل، بنفس القدر، من أجل الحصول على المدد النفسي والطاقة الداخلية، وهذا الشعور الغامض بالرضا والراحة. ويشير الكاتب والفيلسوف الإنجليزي غلبرت كايث تشيسترتون (Gilbert Keith Chesterton)، بمرارة، إلى هذا الاحتياج النفسي الشديد، بكلمته الصادقة: "إن من أسوء لحظات الملحد، تلك اللحظة التي يشعر فيها بالامتنان؛ فلا يجد من يشكره".



ملخص الإلحاد

موقف الإلحاد لخَّصه بإتقان عالم الأحياء الجزيئية بجامعة براون، كينيث ميلر (Kenneth Miller)، في قوله: "إن الخطأ التصنيفي (categorical mistake) الذي يرتكبه الملحد هو افتراض أن الله جزء من الطبيعة؛ ومن ثم فإنه يدخل في نطاق العلم، ضمن ما يمكن التحقق منه واختباره. وبسبب اعتبارهم الله جزءًا عاديًّا من العالم الطبيعي، ثم فشلهم في العثور عليه هناك، انتهوا إلى القول بأنه غير موجود. الله هو السبب في الطبيعة، وهو التفسير لسؤال: لماذا الأشياء هي كذلك؟ إنه الجواب على الوجود، وليس جزءًا من الوجود نفسه ".

اهتداء الإنسان إلى معرفة ربه ... الطريق الطبيعي والأكيد الذي جاء به الإسلام

قول سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.﴾ (الأنعام ٦: ٧٩)

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ) أي: إني صرفت وجهي وقلبي في المحبة والعبادة لله الذي أوجد وأنشأ السماوات والأرض على غير مثال سابق.

(حَنِيفًا) أي: مائلًا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائفة كلها إلى الدين الحق.

(وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أي: وما أنا من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى، لا في أقوالهم ولا في أفعالهم. [تفسير الوسيط لطنطاوي]


يروى أن أعرابيًّا كان يسير على جمل له، فخَرَّ الجملُ ميتًا!
فنزل الأعرابي عنه وجعل يطوف به ويتفكر فيه! ويقول: مالك لا تقوم؟!
مالك لا تنبعث؟!
هذه أعضاؤك كاملة! وجوارحك سالمة!
ما شأنك؟! ما الذي كان يحملك؟! ما الذي كان يبعثك؟! ما الذي صرعك؟!
ما الذي عن الحركة منعك؟!!
ثم تركه و انصرف متفكرا في شأنه، متعجبا من أمره.
الكون يحمل بصمات تصميم ذكي محكم، لا تخطئه العين المجردة، يشير في جميع أرجائه إلى وجود خالق مبدع
haya_eid@yahoo.com